تاريخ اليهود في بلاد العرب

في الجاهلية وصدر الإسلام

د. اسرائيل ولفنسون

(أبو ذئيب)

استاذ اللغات السامية بدار العلوم

الكتاب: تاريخ اليهود في بلاد العرب

الكاتب: د. اسرائيل ولفنسون (أبو ذئيب)

الطبعة: ٢٠٢٢

الطبعة الأولى صدرت عام ١٩١٤

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ولفنسون، اسرائيل

تاريخ اليهود في بلاد العرب / د. اسرائيل ولفنسون (أبو ذئيب)

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٢٨٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان **رقم الإيداع : ١٥٦٩٥ / ٢٠٢١**

تاريخ اليهود في بلاد العرب





مقدمة

الدكتور اسرائيل ولفنسون عالم شاب يسرني أن أكون أنا مقدمه إلى جمهور المستنيرين من الذين يكلفون بالبحث عن الأدب والتاريخ. أقبل إلى مصر وأن له لثافة متينة منوعة، قد اتقن من اللغات الأوروبية الحية أرقاها وأمسها بالبحث العلمي التاريخي ولاسيما فيما يتصل بالمسائل الشرقية العربية، وأتقن من اللغات السامية أغناها بالآثار القيمة في الدين والأدب والعلم، ولم تقف ثقافته عند اتقان هذه اللغات بل درس من آدابها حظا موفورا فكان له مزاج معتدل من هذا القديم السامي والجديد الأوروبي يعدَه أحسن إعداد لتناول المسائل التاريخية والأدبية الرقيقة إذا تهيأت له مناهج البحث كما ألفها علماء أوروبا في هذا العصر الحديث. وما هي إلا أن انتسب إلى الجامعة المصرية القديمة واختلف إلى أساتذتها يسمع دروسهم ويعمل معهم حتى تهيأ له من ذلك ما كان يحب. ولقد كان يختلف إلى دروسي في التاريخ القديم فكان يعجبني منه ميل ظاهر إلى البحث وحرص شديد على الاجادة والاتقان ونشاط غريب إلى القراءة والاطلاع. وكنت أرى فيه عناية خاصة بكل ما يتصل باليهود في عصور السيطرة اليونانية والرومانية على العالم القديم. فرأيت أن أوجه بحثه هذه الوجهة وأشجعه على المضي فيها.

ولست أنسى محاضرات تمرينية ألقاها في مثل هذه الموضوعات تركت في نفسي أحسن ما تترك أعمال التلميذ المجد في نفس استاذه من الأثر.

ثم ظفر بشهادة الليسانس في الآداب من الجامعة القديمة وأخذ يستعد لشهادة الدكتوراه فلم يرقه من المباحث التي كانت تثار في الجامعة على كثرتها إلا هذا المبحث الذي يتصل دائما باليهود وهو تاريخ اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وأبان ظهوره.

والموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جدا في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية. فليس في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز. وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفي أنها قد استحالت من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد

العربية. ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام معروفا على وجهه، إنما هي طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص في غير تحفظ ولا عناية بالدقة والتحقيق وتكثر فيها المبالغات من الناحية اليهودية والإسلامية لأغراض مختلفة معروفة. وكان المستشرقون قد عرضوا لهذا الموضوع من نواحي مختلفة فوفقوا بعض التوفيق ولكن أخطأتهم الأصابة في كثير من الأحيان لأن حظهم من الثقافة العربية السامية لم يكن يعدل حظهم من القدرة على استمثار مناهج البحث الحديث، فاضطروا إلى طائفة من الأغلاط لم يكن منها بد. على أن مباحثهم هذه القيمة كانت وما زالت مجهولة في الشرق العربي لا يلمَ بها إلا الذين يتخذون هذا النحو من العلم غرضا يسعود إليه ويقفون عليه جهودهم.

فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق إلى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه والذي أقدمه أنا الآن إلى القراء سعيدا مغتبطا فتوفيقه مضاعف، ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل، ووفق إلى عرض مباحث المستشرقين حول هذا الموضوع في اللغة العربية ولم تكن قد عرضت من قبل. ووفق بعبارة موجزة إلى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد العربية قبل الإسلام وأبان ظهوره بسطا علميا أدبيا لذيذا ممتعا في كتاب كانت اللغة العربية في حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة

وإذا كان لي أن أتمنى للدكتور اسرائيل ولفنسون شيئا فإنما أتمنى له مخلصا أن يمضي في عنايته بهذه الناحية من حياة اليهود والصلة بينهم وبين الأمة العربية بعد الإسلام كما عني بها قبل الاسلام مهتديا بهدي العلم الصحيح الذي لا يعرف ممالأة ولا مشايعة ولا يرى للعالم إلا غرضا واحدا مقدسا هو السعي إلى الحق والجد في الوصول إليه

د. طه حسين

٢٠ يونيو ١٩٢٧

تصدير

إن الذي يدرس تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ليلمس حاجة اللغة العربية إلى مؤلف خاص في تاريخ اليهود الذين لا ينكر أحد ما كان لهم من الأثر في الجزيرة العربية لذلك العهد، ويعجب كيف حرمت اللغة العربية من مثل هذا المؤلف إلى الآن ؟...

وأقرب ما يخطر بالبال في تعليل هذا التقصير هو أن المتأخرين من مؤرخي العرب لم يلموا الماما كافيا بتاريخ الجاهلية، ولولا ذلك لما أغفلوا تاريخ قسم كبير من سكان الجزيرة كان له من الحوادث السياسية والوقائع الحربية والآثار الاجتماعية ما يستوجب أفراده بطائفة من المؤلفات، إذ كان الباحث في تاريخ الجاهلية يتوقف نجاحه على معرفة تاريخ اليهود في بلاد العرب عامة وفي الأقاليم الحجازية بوجه خاص.

وقد يرجع السبب في هذا التقصير إلى جهل المؤرخين بالنتائج العظيمة التي تترتب على معرفة تاريخ اليهود، ولو أنهم اهتموا به لوجدوا في المراجع العربية القديمة مادة غزيرة تمكن الباحث المحقق من سد هذا النقص وتعينه على التثبت من تاريخ العرب في ذلك الحين.

* * *

إن للبحث في تاريخ يهود الجزيرة العربية أهمية عظيمة في حل المشكلات التي يتخبط فيها كثير من الناس وإماطة اللثام عن لهجات العرب ودياناتهم وعاداتهم لما بين اليهود والعرب من رابطة الدم ولما بين اللغة العبرية واللغة العربية من التشابه والاقتراب.

ومع أنه قد وجدت أمم سامية قبل بني اسرائيل بآلاف من السنين فإن الباحثين يرون في اللغة العبرية وآدابها مقياسا صالحا للبحث في جميع اللغات السامية، إذ كان بنو اسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثا روحانيا عظيما في الأدب والدين يعتبر أكبر

مجموعة قديمة من أثر القريحة السامية، لأن الذي وصل إلينا من آثار البابليين والأشوريين والآراميين ضئيل جدا بالقياس إلى ما وصل إلينا من تراث بني اسرائيل...

على أن اللغة العبرية من أمهات اللغات السامية، فقد كانت شائعة قبل نشوء بني اسرائيل وظهورهم في العالم إذ كانت لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل في طور سيناء وشرق الأردن، وكان من أهم تلك الأمم بنو أدوم وعمون وموآب وقبائل عماليقية ومديانية واسماعيلية ثم ظهرت بطون بني اسرائيل بين هذه الأقوام في طور سيناء وأطراف الحجاز وانتشرت منها إلى الأقاليم الأخرى وبقيت هذه اللغة صاحبة السلطان والنفوذ مدة طويلة إلى أن ظهر تأثير إحدى اللهجات الكنعانية وهي الآرامية، فأخذت اللهجات العبرية والكنعانية الأصلية تضمحل مع التغييرات السياسية إلى أن أصبحت أغلب بطون فلسطين وسوريا والعراق وطور سيناء تتكلم باللهجات الآرامية

ثم أخذت هذه اللهجات في القرون الأولى ب. م تتدهور تدريجيا في أطراف الجزيرة العربية، وأخذت تنكمش وتتضاءل أمام اللغة العربية التي كانت في ذلك الحين تمتد وتنتشر بسرعة حتى اضطرت بعض القبائل الآرامية والعبرية إلى أن تختلط بالعنصر العربي الأصلي وتندمج فيه شيئا فشيئا.

وقد كنت فكرت في أن أخص أقوام طور سيناء ببحث منفرد أكشف فيه بعض ما غمض من أحوالهم معتمدا على بعض الأخبار التي وصلت إلينا من مراجع عبرية ويونانية قديمة، وعلى بعض الاكتشافات القليلة التي ظهرت حديثا عن هذه الأقوام البائدة ولكني رأيت أن في هذا خروجا عن الموضوع الذي نحن بصدده، فأجلت هذا البحث إلى فرصة أخرى..

على أن سكان طور سيناء وأطراف الجزيرة العربية من جهة الشمال الذين تعتبر بلادهم كقنطرة طبيعية بين بلاد العرب وبين فلسطين موطن بني اسرائيل، قد أثروا تأثيرا شديدا في العرب وبني اسرائيل معا، فليس في استطاعتنا والحالة هذه أن نوفي

موضوعاتنا حقها من البيان والتفصيل إلا بعد النظر الطويل والبحث العميق في تاريخ تلك الأمم

وحاجتنا إلى هذا الموضوع في بحثنا هذا كحاجة الباحث في تاريخ روما القديم إلى الالمام بتاريخ بطون وقبائل لاتينية ويونانية قديمة عاشت في بلاد ايطاليا قبل نشوء مدينة روما.

* * *

لقد صرح لي غير واحد من الأصدقاء بأنهم يوجسون خيفة من ثوران عواطف بعض الأندية من المسلمين واليهود من جراء التعرض لموضوع الخلاف الذي نشأ بين الرسول ويهود يثرب، وأن ملينا إلى إحدى الفئتين قد يكون سببا في إثارة سخط الطائفة الأخرى.

لكننا نعتقد أن رسالتنا موجهة إلى طائفة المفكرين الذين لا ينشرون دعوة خاصة في كتاباتهم، بل يقصدون دائما إلى البحث المجرد عن العواطف القومية والدينية

وما من أحد ينظر بإمعان وإنصاف إلى حوادث اليهود والأنصار في يثرب دون أن تمتلئ نفسه بشعور الإجلال للفئتين، لأن النضال العنيف الذي وقع بينهما قد برهن على أن هذا النزاع كان من الأمور المقدرة في حسبان كل من تتبع الحوادث التي وقعت في المدينة بعد أن هاجر إليها الرسول، فقد كانت الضرورة الطبيعية لنجاح مشروعات المسلمين تقضى حتما بوقوع العراك الشديد بين الطرفين

ومن أجل ذلك فقد تغيرت الحالة تغييرا جوهريا بعد أن انتهت الخصومة السياسية بين الرسول وبطون يثرب، حتى شرع اليهود ينظرون بعيون الاكبار والاحترام إلى جيوش المسلمين التي كانت تغمر كالسيل أقطار العالم ونواحيه، وكانت هذه الجيوش قد قضت على سلطة الدولة الرومية في أقاليمها القاصية والدانية، تلك الدولة التي ملأت تاريخها بحوادث الظلم والعسف وإهراق الدماء مدة طويلة من الزمان

وقد كان اليهود في أغلب مدن العراق يخرجون لاستقبال جيوش المسلمين بالحفاوة والإكرام لأنهم كانوا يؤثرونهم على غيرهم إذ يرون فيهم قوما يؤمنون بآله موسى وابراهيم

ولقد ازدادت هذه الروابط متانة مع امتداد الزمن حتى دخل اليهود في جيوش المسلمين ليناضلوا معهم في أقاليم الاندلس

وينبغي ألا يغيب عن البال أن الخسارة القليلة التي لحقت يهود بلاد الحجاز ضئيلة بالقياس إلى الفائدة التي اكتسبها العنصر اليهودي من ظهور الاسلام، فقد انقذ الفاتحون المسلمين آلافا من اليهود كانوا منتشرين في أقاليم الدولة الرومية، وكانوا يقاسون ألوانا شتى من العذاب

زد على هذا أن اتصال اليهود بالمسلمين في الأقاليم الاسلامية كان سببا في نهضة فكرية عظيمة عند اليهود بقيت آثارها في تاريخ الآداب العربية والعبرية زمنا طويلا....

* * *

ويجمل بنا أن نلفت الأنظار إلى أننا نسبنا كل ما لم يكن من رأينا سواء كان كبيرا أو صغيرا إلى صاحبه وذلك قد يتطلب في أغلب الظروف جهدا غير قليل

أما الآراء التي لم ننسبها لغيرنا فهي بطبيعة الحال جديدة وبعضها عرضة للنقد والشك ونعتقد أنه لو رجحت صحتها لكان ذلك لنا مكافأة عظيمة يرتاح لها الضمير يطمئن إليها الخاطر

* * *

ولا يسعني بعد هذا إلا أن أرفع خالص الشكر للقائمين بأمر الجامعة المصرية وأساتذتها الأجلاء

وبهذه المناسبة أقدم تمنياتي الطيبة وعاطر ثنائي لحضرة الاستاذ العلامة الشيخ

عبدالوهاب النجار الذي أسدى إلي الكثير من النصح والإرشاد

أما رجل اليوم أستاذي الدكتور طه حسين الذي تفضل وقبل الإشراف على رسالتي وبذل الكثير من وقته الثمين في قراءتها فإلى نبوغه النادر المنال في النقد يرجع الفضل في هدايتي إلى بعض دقائق هذا البحث الذي أرجو أن يظفر برضاء القراء الكرام السلام

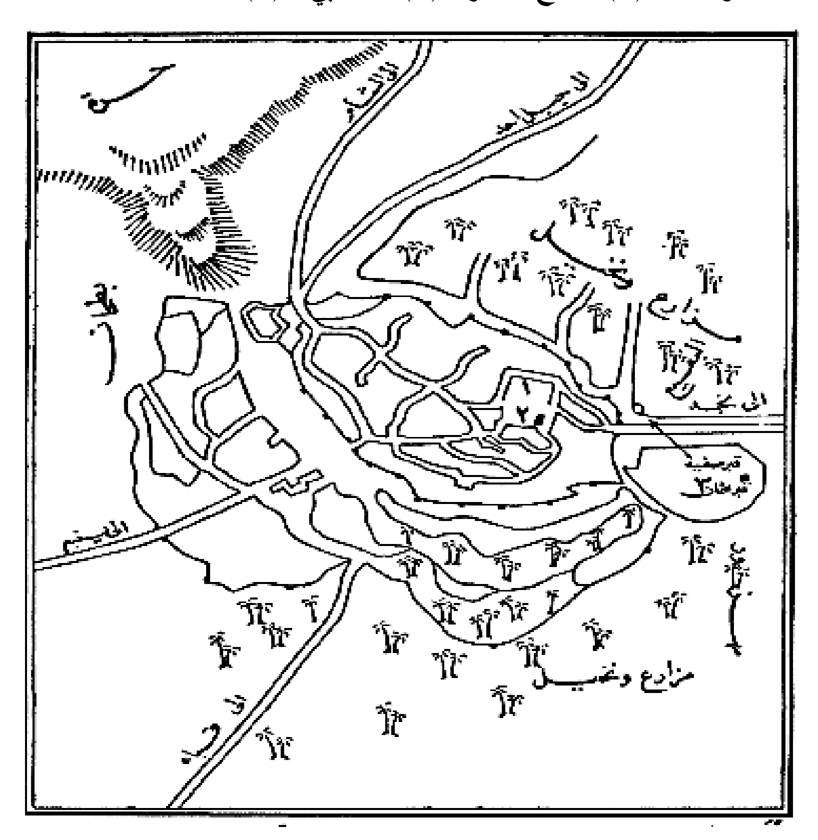
اسرائيل ولفنسون(أبو ذؤيب)

٢٤ يونيه سنة ١٩٢٧

المدينة المنورة (يثرب)

مقاس الرسم ١ : ١٢,٥٠٠

ملحوظات : (١) الجامع الكبير (٢) قبة النبي (٣) مجبانات



وضعت لكتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. للدكتور إسرائيل ولفنسون

الباب الأول

اليهود في بلاد الحجاز

تقسيم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب إلى طورين – مراجع البحث في الطور الأول – الموحدون للآله وعبدة الأصنام من بني اسرائيل في العهد القديم – أول هجرة اسرائيلية إلى بلاد العرب – النص التاريخي. رأى بعض المستشرقين فيه – رأى المؤلف في هذه الهجرة – رأى قدماء مؤرخي العرب عن وجود قبائل اسرائيلية بائدة في الجزيرة العربية – صحف العهد القديم وحوادث بني اسرائيل في الجزيرة العربية قديما – مهاجرة بطون يهودية من أوطانها إلى الجزيرة في الطور الثاني – أسبابها – أشهر البطون اليهودية في بلاد العرب – نزولها في مواطن اليهود القدماء – انتشار الحركة الزراعية والتجارية والصناعية في الحجاز بنشاط اليهود – الفرق بين الطورين في الاستعمار – سكوت المراجع اليهودية عن تاريخ بني اسرائيل في الجزيرة العربية – شكوك مؤرخي الإفرنج في كثير مما ذكر مؤرخو العرب عن يهود الجزيرة – هل كان يهود الجزيرة من الوجهة الدينية مثل أبناء جلدتهم ؟ – اعتناق بطون عربية للديانة اليهودية – بحث في أسماء القبائل اليهودية – رأى اليعقوبي – رأى المؤلف – حصون وآطام اليهود في بلاد العرب – أسماؤها العربية والعبرية – المواد التي كان اليهود يتجرون فيها – شيوع الربا عند اليهود والعرب – صناعة الصياغة عند يهود يثرب – سوق بني قينقاع – الدوائر الزراعية اليهودية في الحجاز – لغة اليهود في بلاد العرب – الرطانة اليهودية – الاحبار – القضاء عند يهود الحجاز – قبلة اليهود – الصلاة – الصيام – تخلق اليهود باخلاق العرب – منزله الشعر العربي عند اليهود – رأى الاستاذ الدكتور طه حسين في أثر اليهود الأدبي في الجزيرة – رأى المؤلف في شعر اليهود النزعة الشعرية عند اليهود والعرب – كيف احتفظ بشعر اليهود – السموءل بن عادياء – آراء مؤرخي العرب فيه – الأب شيخو وديوان السموءل – تحليل شعر السموءل – أهم قصائد السموءل – كعب بن الأشرف – حياته وأشعاره – اشتراك النساء في النهضة الشعرية.

رأيت أن أقسم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب إلى طورين أساسيين الطول الأول يشمل حوادث لبطون إسرائيلية بائدة في بلاد العرب والطور الثاني يتناول أخبارا لجموع من اليهود كان لها شأن عظيم في تاريخ الجزيرة العربية

ويقف آخر الطول الأول عند نهاية القرن الخامس قبل الميلاد أما الطور الثاني فينتهي باجلاء عمر بن الخطاب آخر الطوائف اليهودية من الجزيرة العربية

وهذا التقسيم هو الشائع عند العلماء الذين كتبوا في تاريخ بني اسرائيل بوجه عام. ولنتكلم أولا عن الطور الأول بقدر ما مكنتنا المصادر التاريخية التي اسنقينا منها معلوماتنا عن هذا الطور فإنها مراجع قليلة تضطر الباحث إلى بذل مجهود كبير حتى يستطيع أن يلقي شعاعا من النور يخفف به من وطأة ظلامه الدامس

كان بنو إسرائيل في هذا الطور الأول يعبدون الله مع تقديسهم لبعض الأصنام على حين كانت طائفة منهم تعبد الله وحده مخلصين له الدين وهي طائفة الكهنة والأنبياء وبعض الطبقات من الأشراف والملوك والنقباء الذين آمنوا برسالة موسى واتبعوا شريعته

وكان الموحدون للآله في بدء الأمر قليلين ولكنهم أخذوا يكثرون شيئا فشيئا على مرور الزمن وتوالي العصور حتى تأثرت العقلية اليهودية بالشريعة الموسوية وخضعت لها أفكار اليهود وامتلأت بها قلوبهم وكان ذلك في بدء الطور الثاني بعد رجوع اليهود من السبي البابلي سنة ٥٣٨ ق. م.

ومن حيث أن المرجع الوحيد الذي يمكننا أن نستقي منه أخبار بني اسرائيل إلى القرن الخامس ق. م إنما هو كتاب العهد القديم فإنه يجدر بنا أن نبحث فيه لنقف منه على حوادث الطوائف الاسرائيلية التي سكنت بلاد العرب

تحدثنا صحف " أخبار الأيام " عن أول هجرة مشهورة في تاريخ بني اسرائيل إلى بلاد العرب أن بطون بني شمعون سارت إلى أرض طور سينا مع ماشيتها لتبحث لها عن مرعى إلى أن وصلت أرض قبائل معان فاشتبكت معها في قتال عنيف انتهى بفوز

بطون شمعون وتمزيقهم لأقوام من البطون المعانية شذر مذر

ومع ما لهذه الرواية من عظم القيمة في بحثنا فإننا نرى فيها غموضا وابهاما إذ لا نستطيع أن نعلم منها متى نزحت بطون بني شمعون إلى جزيرة العرب

غير أن العالم دوزي يحاول في مصنفه عن بني اسرائيل في مكة أن يثبت أن الهجرة الشمعونية حدثت قبيل عصر الملك داود حوالي عام ١٠٠٠ ق. م في حين يعارضه المستشرق مرجوليوث في كتابه عن علاقة العرب بالبطون الاسرائيلية قبل ظهور الاسلام ويقرر أنها لم تحصل إلا في عصر الملك حزقياه الذي حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ – ٦٩٠ ق. م

وأما بعض الحدثين من العلماء والذين لا يريدون أن يخوضوا غمار المناقشة مع هذين العالمين فلم يتعرضوا لما قالاه بنفي أو إثبات ولكنهم يرون أنه لا يمكن التعويل على هذه الرواية المنقولة من الكتاب المقدس لقلة النصوص التاريخية القاطعة عن وجود بني شمعون حتى أن الذي يتلو صحف العهد القديم لا يجد شيئا عن قبيلة شمعون في تاريخ بني اسرائيل سوى رواية تدل على اشتراكها مع بطون بني يهوذا في فتح فلسطين وسوى ما جاء عن نزوحها من الديار الاسرائيلية

مثل هذه النقول القليلة دفعت هؤلاء المحدثين من المستشرقين إلى أن يشكوا في أن تكون قبيلة شمعون هذه كان لها وجود في عالم الحقيقة

ولكنا نرى أن انكار وجود قبيلة شمعون أمر غير ميسور وقد كان لها ١٢ مدينة في جنوب فلسطين دخلت في حوزتها بعد استيلاء يوشع بن نون على البلدان الكنعانية وأقامت فيها مدة طويلة

على أن لدينا ملاحظة على الرواية المنقولة من كتاب أخبار الأيام عن هجرة بني شمعون طلبا للمرعى فقط وهي أننا نستبعد كل الاستبعاد أن تنزح جميع بطون شمعون من فلسطين تاركة مدنها وثروتها مرة واحدة وفي وقت واحد إلى بلاد أخرى ليست أخصب من بلادهم بدرجة كبيرة بل ليست هناك فوارق طبيعية بين البلاد وقد تكون

البلاد التي تقول الرواية إنهم ساروا إليها طلبا للمرعى أشد اجدابا من بلادهم التي رحلوا عنها ثم لا يعودون إلى موطنهم الذي منه نشأوا وفيه عاشوا على كر الزمن ومرور الأيام

معقول أن تزعج سنو المحل والقحط الناس عن مواطنهم وتضطرهم إلى أن يرحلوا عنها ليجدوا ما يقتاتون به ولكنهم لا يرحلون عن بلادهم جملة واحدة ولا يقصدون جهة معينة وهم مجتمعون بل يتفرقون هنا وهناك وتقصد كل فئة ناحية من النواحي المحيطة والقريبة منها ليأخذوا ما يستطيعون الحصول عليه من أسباب العيش ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى بلادهم وموطنهم ليستأنفوا فيه الحياة الهادئة الوادعة

أما أن يخرجوا من بلادهم جملة واحدة ويقصدوا جهة معينة وهم جماعة ولا يعودوا إلى بلادهم مطلقا فهذا ما لا يكاد يوجد في تاريخ بني اسرائيل

ولو أغضينا النظر عن كل هذه الاعتبارات وفرضنا صحة هذه الرواية وصدقنا أن هذه الهجرة قد وقعت كما يصورها لنا النص المنقول من سفر أخبار الأيام فإننا نعتقد أن تكون قد حدثت في زمن قديم جدا في القرن الثاني عشر ق. م. على أقل تقدير إذ لم يكن بنو إسرائيل قد عرفوا بعد تدوين الحوادث التي تقع لهم في صحف، أي أنها حدثت في زمن غير بعيد من عهد الاحتلال الاسرائيلي للبلاد

وكما أن حوادث الفتح لم تصل إلينا واضحة وافية كذلك وصلتنا أخبار شمعون في روايات غامضة وذلك لأن بني اسرائيل بعد توغلهم في فلسطين بقوا زمنا غير قليل محتفظين بصفات ومميزات سكان الصحاري في أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ونفورهم من كل أنواع التغيير والتجديد

وقد مضت عليهم قرون عدة وهم في همجيتهم الأولى حتى دار الزمن دورته وأخذت الأحوال الاجتماعية والأدبية تتبدل وتتحول إلى أن ظهر عند الشعراء والمفكرين ميل شديد إلى تدوين أخبار العصور الماضية وذكر أيام القبائل الاسرائيلية وبيان أوطانها التي نزحت عنها والظروف التي دعت إلى تركها وكان غرضهم من ذلك

أن يحافظوا على أنسابهم وأن يشيدوا بما كان لهم من مجد وسؤدد

أما فيما يتعلق ببلاد وقبائل معان فإن المستشرقين قد اتفقوا على أنها قد سكنت بين جهات يثرب ومكة ويعتمدون في ذلك على أقوال الجغرافي سترابو الذي جاء باسماء دول الجزيرة العربية مرتبة على هذا المنوال :

قبائل معان وعاصمتها قرنا

قبائل سبا وعاصمتها مأرب

دولة ثمنا وكانت في جهات باب المندب

مملكة حضرموت وعاصمتها سبوة

ويتضح من وصف بلينوس (**plinus**) لأهل معان أنهم كانوا على جانب عظيم من القوة والبطش وكثرة العدد ووفرة المال ويسرد لنا العالم جلارز (**Glaser**) في كتابه الذي صنفه عن بلدان الجزيرة العربية حوادث كثيرة لبطون معان وعلاقتها مع أمم فلسطين وأساس بحثه قائم على منقوشات قديمة عثر عليها في جهات مختلفة من تلك الاصقاع

وتذكر لنا صحف العهد القديم من أخبار بني اسرائيل عدا هذه الهجرة أن بلاد طور سيناء وشمال الجزيرة بوجه عام كانت ملجأ يقصد إليه كثير من بني اسرائيل الذين كانوا يفرون من وجه الملوك والحكام الظالمين ثم في عهد الملك بختصر فإنه حين غزا أورشليم قصدت جموع من اليهود أرض الجزيرة

ولم تغفل المصادر العربية الإشارة إلى أن قبائل اسرائيلية كانت تسكن بلاد العرب منذ زمن قديم جدا فقد قال صاحب الأغاني " كان ساكنو المدينة في أول الدهر قبل بني اسرائيل قوما من الأمم الماضية يقال لهم العماليق وكانوا قد تفرقوا في البلاد وكانوا أهل غزو وبغي شديد وكان ملك الحجاز منهم يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء إلى فدك وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع وكان موسى بن

عمران قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم فبعث موسى إلى العماليق جيشا من بني إسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعا إذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحدا فقدم الجيش الحجاز فأظهرهم الله على العماليق فقتلوهم أجمعين إلا بنا للأرقم كان وضيئا جميلا فضنوا به على القتل وقالوا نذهب به إلى موسى فيرى فيه رأيه فرجعوا إلى الشام فوجدوا موسى قد توفى فقالت لهم بنو اسرائيل ما صنعتم فقالوا أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير غلام كان شابا جميعا فنفسنا به عن القتل وقلنا نأتي به موسى فيرى فيه رأيه فقالوا لهم هذه معصية قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وأن لا تدخلوا علينا الشام أبدا فلما صنعوا ذلك قالوا ما كان خيرا لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز نرجع إليها فنقيم بها فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة فنزلوها وكان ذلك الجيش أول سكني اليهود بالمدينة

ويضيف ابن خلدون إلى هذه الرواية أنه يشك في صحتها لأنها لم توجد عند اليهود ولأن اليهود لا يعرفون هذه القصة

ثم يحدثنا ابن خلدون أن داود لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه فر مع سبط يهوذا إلى خبير وملك ابنه الشام وأقام بخيبر إلى أن قتل ابنه وعاد إلى وطنه فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلا بيثرب ويجاوزها إلى خيبر

غير أننا نرى أنه لا يمكن التعويل على أقاصيص من هذا النوع سردتها المراجع العربية على أنها أساطير شائعة وروايات غير جديرة الاعتماد عليها وإذا لم يكن مؤرخو العرب قد استطاعوا أن يصلوا إلى أخبار ثابتة موثوق بها عن بني النضير وقريظة ومتى كان ظهورهم في بلاد العرب فكيف يستطيعون أن يصلوا إلى أخبار حقيقية عن طوائف إسرائيلية قديمة بادت واندثرت من قبل أن يوجد بنو النضير وقريظة ؟...

كذلك لا يمكننا أن نطمئن إلى الأخبار القليلة التي نصت عليها بطريقة غير مباشرة صحف العهد القديم عن وصول جموع إسرائيلية إلى الجزيرة العربية ولا

نستطيع أن نثبت هذه الأخبار اثباتا حقيقيا

وإنما الذي يمكننا أن نقوله على سبيل الظن اعتمادا على هذه الأخبار هو أن القدماء قد اعتقدوا أنه قد وجدت في جهات يثرب وخيبر بطون اسرائيلية قبل وصول جموع اليهود إلى الأصقاع العربية في الدور الثاني

ويؤيد هذه النظرية ما نجده في كتاب العهد القديم من النص على وجود علاقة متينة بين بلاد فلسطين وبلاد الجزيرة العربية

كانت فلسطين بمثابة القنطرة التي تربط بلاد العرب وسورية من جهة ومصر والعراق من جهة أخرى وكانت القوافل العربية تأتي من بلادها إلى أسواق مدن بني اسرائيل وكنعان وكان تجار اليهود يرحلون إلى سبأ في عهد سليمان وبعده

كذلك نعلم أن بعض ملوك بني اسرائيل انتصروا انتصارات باهرة على قبائل عربية وعمالقة غزوها وأنهم واصلوا غزواتهم حتى وصلوا إلى أرض الجزيرة

ونعلم أيضا أن مدينة العقبة (ايلة) كانت في عصر من العصور مستمرة يهودية والخلاصة أن عناصر اسرائيلية يظن أن قد هاجرت من ديارها إلى الأقليم العربية في عصور مختلفة ولأسباب شتى غير أنها بادت كما بادت قبائل عربية كثيرة ولم يبق من آثارها سوى اسمها

وقد حاول بعض المستشرقين أن يجدوا علاقة بين حوادث وقعت لقبائل عربية بائدة من جرهم وغيرها وبين أخبار رويت عن بطون اسرائيلية قديمة كانت في الجزيرة العربية ولولا قبح الاعتماد على الحدس والنخمين لنا بعث من كتب في هذا الباب من المستشرقين ولكني أوثر الاحتياط وأفضل الاكتفاء بهذا المقدار لأنقل إلى الكلام عن طور اليهود الثاني في بلاد العرب

أخذت جموع كثيرة من اليهود في القرن الأول والثاني بعد الميلاد تهاجر إلى الأرجاء العربية عموما وإلى الربوع الحجازية بنوع خاص ولا شك أنه كانت هناك أسباب دعت هذه الجموع إلى ترك أوطانها والنزوح منها إلى البلاد العربية ويمكننا أن

نلخص هذه الأسباب فيما يأتي :

(أ) زيادة عدد اليهود في فلسطين زيادة مطردة جعلت البلاد تضيق عن أن تسعهم وتنفسح لعملهم في سبيل الحياة وقد بلغ عددهم في ذلك الحين أكثر من أربعة ملايين نسمة وهو عدد كبير لا تتسع له بلاد ضيقة كفلسطين فاضطروا بحكم هذه الزيادة المستمرة والنمو المطرد أن يهاجروا إلى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كمصر والعراق والجزيرة العربية

(ب) حدث حوالي القرن الأول ق. م أن هاجمت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة فيها وأخضعتها لسلطان النسر الروماني الذي قبض على زمام الحكم بيد من حديد ولكن النفور والاستياء في نفوس اليهود كان شديدا إلى حد أن الفتن والثورات العنيفة كانت تشتعل نيرانها من حين إلى آخر وكان الرومان يقمعون تلك الثورات بشدة وقسوة تزيد النفور وتضاعف الاستياء فاضطر من لم يكن يستطيع البقاء في البلاد مع هذه الأحوال القاسية أن يلجأ إلى أرض الجزيرة العربية التي كانت أحد إليهم من غيرها نظرا لأنظمتها البدوية الحرة ونظرا لوجودها في أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها

(ج) بعد حرب اليهود والرومان (٧٠ ب. م) التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود في اصقاع العالم قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب للمزايا التي ذكرناها كما يحدثنا بذلك المؤرخ اليهودي يوسف الذي شهد تلك الحروب وكان قائدا لبعض وحداتها

وتؤيد المصادر العربية كل هذا فقد ذكر صاحب الأغاني أنه لما ظهرت الروم على بني اسرائيل جميعا بالشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم إلى من بالحجاز من بني اسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم في طلبهم ليردهم فأعجزوه وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحاري لا نبات فيها ولا ماء فلما طلب الروم

الثمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا وسمي الموضع تمر الروم فهو اسمه إلى اليوم

وتتلخص آراء بقية مؤرخي العرب في أن جموع اليهود في الجزيرة العربية قد زادت وكثرت بعد اضطهادات الرومان لليهود وقد يجوز أن تكون هذه الروايات اتصلت بالعرب من يهود يثرب وخيبر

وإذا صح ما رويناه سابقا عن تاريخ اليهود في الجزيرة العربية في الدور الأول كان مؤيدا للرأي الذي يقول إن المهاجرين في الدور الثاني قد توجهوا في بادئ أمرهم إلى الجهات التي كانت مسكونة بطوائف إسرائيلية من زمن قديم

ولقد كان لليهود إلى عصور الدور الثاني بضع مستعمرات صغيرة فصارت بعد ذلك الحين كبيرة وكثيرة وظهرت مدن وقرى جديدة وآطام وحصون على رؤوس الجبال وانتشرت الحركة الزراعية في الأراضي التي كانت منذ ألوف من السنين قاحلة ماحلة لأن اليهود كانوا يشنغلون في موطنهم الأصلي بالزراعة قبل كل شئ وكانت فلسطين غنية بحاصلات القمح والشعير والزيتون والتمر والعنب وكانت تصدر كثيرا من تلك الحاصلات إلى جهات مختلفة منذ عصور قديمة

كذلك انتشرت الحركة الصناعية والتجارية وانشئت أسواق عديدة يهودية ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن الاستعمار الجديد لم يقم على حد الظبا ولم يؤد إلى طرد قبائل عربية أصلية من مواطنها كما حدث في الدور الأول الذي استأصل فيه الفاتحون من بني إسرائيل شأفة بطون معينية وغيرها وإنما الذي حدث في الطور الثاني أن ضيوفا مضطرين نزلوا على أبناء جلدتهم فاستقبلهم هؤلاء بالحفاوة والترحيب إذ كانوا يعلمون أنهم قارون من مخالب النسر الروماني وسهل الامتزاج بين هؤلاء وهؤلاء بحكم الغريزة الجنسية والعاطفة الدينية وتعاون الجميع على العمل في سبيل الحياة فنجحوا وأثروا وكان لهم في بلاد العرب شأن عظيم

ويجب ألا يغيب عن البال أن جهات يثرب ووادي القرى كانت غير آهلة بكثير من العرب بل كانت جموع منهم تأتي إلى وديانها في أوقات معينة من السنة كقوافل

راحلة مع إبلها لتأكل من أعشابها ثم تنزح عنها إلى جهات أخرى وبطبيعة الحال كان لليهود في دورهم الثاني بالجزيرة حوادث تاريخية ذات شأن بحكم عوامل التغيير والانقلاب وبحكم اختلاف الامزجة وتعارض الأهواء وتضارب المصالح فقد كان عددهم كبيرا بحيث يمكن اعتبارهم أمة قائمة بذاتها يصيبها من ضرورات الاجتماع ما يصيب غيرها ويحدث بينها وبين جيرانها العرب ما يحدث بين أية أمة أخرى وبين من يجاورها من الأمم ومع هذا فإننا نجد المصادر الاسرائيلية خالية من ذكر شئ عن تاريخ اليهود في ذلك الدور وساكتة عن التحدث عنهم سكوتا تاما كأن لم يكن هناك يهود وكأن لم تحدث لهم حوادث وكان هذا السكوت موضع العجب عند الباحثين إذ هم يعلمون أن الأمة الاسرائيلية كانت كثيرة التدوين في كل عصورها مغرمة بجمع حوادثها وأخبارها في كل البلاد التي نزلت بها جموع منها

وها هي مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود في بلاد العراق والفرس ومصر واليونان والرومان نجد فيها كل ما نتطلع إليه من أخبار اليهود في تلك البلاد في حين لا نكاد نجد مؤلفات عبرية عن يهود العرب إلا شيئا ضئيلا جدا لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت في بعض الكتب اندماجا عرضيا غير مقصود

ولا شك أن هذا مما يضاعف عناء الباحث ويسد في وجهه سبل الكشف عن نواحي الحياة عند يهود الجزيرة العربية

ولكننا نستطيع أن نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شأن وهي أن سكوت المراجع الاسرائيلية عن سرد حوادث اليهود في الجزيرة العربية يدل دلالة قاطعة على أن اليهود في بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الانقطاع عن بقية أبناء جنسهم في جهات العالم ولم تكن لهم بهم أية صلة وكأن الجزيرة التي انفردت بقبائلها وانقطعت عن العالم المتمدن انقطاعا كليا قضت على كل من يسكنها من اليهود أن يكون مثل أبنائها وان يقطع كل علاقة بينه وبين يهود البلدان الأخرى

ومما لا شك فيه أن الصفات المدنية التي كانت لليهود قد زالت منهم بعد

استياطنهم بلاد العرب الصحراوية البعيدة عن كل حركة عمرانية وضعفت فيهم تلك الوراثة الروحانية التي حملوها معهم إلى كل بلد نزحوا إليه وأخذوا ينزلون من أوج المدنية والحضارة شيئا فشيئا حتى وقعوا في هوة الهمجية وصاروا مثل غيرهم من سكان تلك الجزيرة المنعزلين عن جميع العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة

وان أمة تغفل تدورين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائحها لتورثها لخلفها لآيلة حتما إلى أحط أنواع الهمجية مهما كانت درجتها في الحضارة والعمران

لم يظهر شئ من النبوغ والعبقرية في يهود بلاد العرب مطلقا ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري وإن كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب إلى المدنية من بقية العرب هذا مما لا شك فيه أحد من مؤرخي العرب وعلماء الافرنج ولكن يظهر أن البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية فتغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفيساتهم

وكما ترجع إلى المصادر العربية في أثناء بحثنا عن حياة العرب في الجاهلية كذلك نستمد منها أخبار اليهود في تلك العصور

وإذا كان تاريخ القبائل العربية فيها قد وجد مشوها تشويها غير قليل فكذلك أخبار اليهود فيها تشتمل على مبالغات كثيرة لا يمكن أن يعتمد عليها المؤرخ المحقق

ولا ريب أن كل أمة تكتب تاريخها كما تحب وتهوى لا كما تريد الحقيقة المجردة عن كل غرض فهي تجتهد في أن تصور الوقائع والحوادث التي تقع بينها وبين أية أمة أخرى بالصورة التي تظهرها كأنها أمة قد اجتمعت فيها كل المزايا والصفات المحمودة في حين تصور خصومها بشكل يدل على أنهم قد جمعوا كل الصفات المذمومة

ومن أجل هذا نجد مؤرخي المسلمين قد شنوا الغارات القلمية بعد الخصومات السياسية والدينية على قريش الوثنية والطوائف اليهودية لأن الرائد الأسمى في تدوين المسلمين لأخبار الخصومات كان قبل كل شئ ذكر مجد القاهر وذل المقهورين ولو وصلت إلينا أخبار الحوادث التي وقعت بين العرب واليهود في الجزيرة العربية من

مصادر اسرائيلية لكان من الممكن بواسطة المقارنة بينها وبين المراجع التاريخية العربية أن نستخلص حقائق تاريخية ثابتة

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث ب. م. إنهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقا إذ لم يحافظوا على الديانة الآلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما

وكان العالم شير يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة. كانت يهودية في أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي

ويحدثنا صاحب الأغاني عن الأماكن التي نزل بها اليهود في الدور الثاني فيقول : لما قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم نزلا سواها فخرج حتى أتى العالية وهي بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع إليهم فقال قد وجدت لكن بلدا طيبا نزها إلى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومدرة طيبة في متأخر الحرة فتحول القوم إليها من منزلهم فنزل بنو النضير ومن منهم على مهزور وكانت لهم تلاعه وما تبقى من بعاث وسموات فكان ممن يسكن المدينة حتى نزلها الأوس والخزرج من قبائل بني اسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود... وكان هناك معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حي من اليمن وبنو مرند حي من بلى وبنو نيف حي من بلى أيضا وبنو معاوية حي من بني سليم ثم من بني الحارث بن بهثة وبنو الشظية حي من غسان...

وبقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالي اليهود

وكانت هناك قرى كثيرة في أرض خيبر الواقعة شمال يثرب آهلة باكثرية مطلقة من اليهود ثم هناك وادي القرى المشهور بأرضه الخصبة وحدائقه الزاهرة كان أيضا من المستعمرات اليهودية ووجد اليهود أيضا بكثرة في أرض تيماء...

ومن هذا يتضح أن جموع اليهود كانت منتشرة في شمال الحجاز

ويظهر جليا من أقوال بعض مؤرخي العرب أن بطونا عربية كثيرة قد اختلطت بالعنصر اليهودي في بلاد الحجاز وأثرت في أخلاقه وعاداته تأثيرا ظاهرا ولكنها لم تستطع أن تتغلب على عقليته الأصلية بل بقي هذا العنصر ممتازا بعقليته امتيازا ظاهرا

وينكر المؤرخ اليعقوبي وجود طوائف يهودية أصلية كثيرة في الحجاز بل يعنقد أن أغلبها من العنصر العربي وأقلها من العنصر اليهودي ويقول ان بني النضير فخذ من جذام إلا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به ونزل بنو قريظة بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه

ولكن من جهة أخرى تجتهد طائفة من المؤرخين الافرنج في أن تجد لبعض أسماء القبائل اليهودية اشتقاقا عبريا

على أن الاستدلال ببحث لغوي كهذا على جنسية اليهود في بلاد العرب لا يمكن أن يعتد به أو يعول عليه فمن الحق أن أسماء أكثر القبائل اليهودية عربية محضة كما يقول اليعقوبي ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس إذ يمكن أن تكون جموع اليهود التي هاجرت إلى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التي نزلت بها أسماء لها بل الواقع أن اليهود في دورهم الثاني لم يكونوا يعرفون بانسابهم بل عرفوا كلهم بأسماء المدن والقرى والأقاليم التي جاءوا منها فكان يقال مثلا فلان الاورشليمي والآخر الحبروني وهكذا.. نعم كان بنو اسرائيل في دورهم الأول ينتمون إلى قبائلهم فكان يقال مثلا فلان من سبط يهوذا والآخر من قبيلة افرايم وكان اليهود في وطنهم الأصلي قبل أن تحل بهم تلك الرزايا التي شتتت شملهم وفرقتهم أيادي سبا قد وصلوا إلى درجة عظيمة من المدنية والحضارة وبلغوا مكانا عليا في الرقي الروحاني

والاجتماعي حتى انمحى من بينهم نظام القبائل وصاروا أمة واحدة مندمجة اندماجا كليا حتى نسي الأفراد فكرة التفاخر بالانتساب إلى قبائلهم ونسيت القبائل عادة الانقباض والاحتراس من أن تختلط دماؤها بدماء القبائل الأخرى بل أصبح المجموع للأفراد والأفراد للمجموع كما هو شأن جميع الأمم التي تنتقل من طور البداوة إلى طور الحضارة

وقد أشار التلمود إلى مسألة الانساب الاسرائيلية مبينا أنها ضاعت وذكر أن سبب ضياعها هو أن الملك هرودس اليهودي أحرق كتب الأنساب الاسرائيلية

ومن هنا نعرف السبب في أن اليهود الذين نزحوا إلى بلاد العرب لم يكونوا بأكثر من أنهم يهود فحسب وفي أنهم لم يكونوا يتمايزون فيما بينهم إلا بأسماء الأماكن التي جاءوا منها

والطريقة المثلى لمعرفة جنسية اليهود في بلاد العرب إنما هي النظر في الأخلاق والتقاليد واتجاه الأفكار والأعمال

ومن هذا السبيل نستطيع أن نحكم بأن يهود يثرب خصوصا وشمال الحجاز عموما أقرب إلى العنصر اليهودي منهم إلى العنصر العربي نظرا لما وصفهم القرآن الكريم

أقام اليهود الحصون والآطام على قمم الجبال ليتحصنوا بها في أوقات الحروب حين يغزوهم الأعراب الطامعون في أموالهم وحاصلاتهم الزراعية أو حين تغزوهم بطون يهودية أخرى لسبب من الأسباب

ويرجح أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال الجزيرة العربية إنما أتى بها اليهود من وطنهم الأصلي الذي كثرت في جباله الحصون المنيعة

ومن هذه الحصون التي أقامها اليهود في بلاد العرب حصن الأبلق للسموءل وحصن القمومي لبني أبي الحقيق وحصون السلالم والوطيح وناعم وسعد بن المعاذ الخ...

وقال السمهودي أن قبائل اليهود تنيف على العشرين وعدة آطامهم وآطام من نزل معهم من العرب تزيد على السبعين جاء النهي عن هدمها

ومع أن أغلب أسماء البلدان والأماكن التي سكنها اليهود في الحجاز كانت عربية فقد وجد لبعضها اتصال باللغة العبرية مثل وادي بطحان فإن معناه بالعربية الاعتماد ووادي مهزور أو محزور معناه مجرى الماء وقال السمهودي سمران جبل بخيبر صلى النبي على رأسه والعامة تسميه مسمران وضبطه بعضهم بالشين المعجمة فإذا علمنا أن في فلسطين جبلا يسمى شمران أمكننا أن نستنتج أن سمران هذا إنما هو لفظ عبري أطلقه اليهود على ذلك الجبل بعد أن نزلوا بجانبه

ويؤكد صحة هذا الاستنتاج ما قلله السمهودي من أن بعضهم ضبطه بالشين المعجمة. ثم بئر أريس فإنها نسبة إلى رجل يهودي اسمه أريس بلغة أهل الشام ولكننا نعتقد أن هذا الاسم في الأصل غير علم بل هو نكرة يطلق في اللغة العبرية والآرامية على الفلاح الحارث. وبئر روما اشتراها عثمان من يهودي ومعناها بالعبرية البئر العالية (באר רמה)

وإنما ذكرنا هذه الطائفة من الأسماء وبينا علاقتها باللغة العبرية لنستدل منها على أن اليهود في بلاد العرب لم يقطعوا صلتهم بلغتهم الأصلية

والعلماء المؤرخون يهنمون بمثل هذه المسائل ليستدلوا بها على مبلغ تأثير اللغة العبرية في اليهود وليتوصلوا إلى معرفة موضوعات مختلفة من تاريخ العرب في الجاهلية وفي عصر ظهور الاسلام

* * *

أدخل اليهود إلى بلاد العرب أنواعا جديدة من الأشجار وطرقا جديدة للحراثة والزراعة بالآلات حتى عدوا من أجل هذا أساتذة لعرب الحجار

ومنهم من حفر الآبار في الأراضي العالية ومن أجل هذا كانت أراضيهم أخصب بلاد العرب.

وكان اليهود يشتغلون بتربية الماشية والدجاج وكانوا في جهات مقنا يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم تشتغل بنسج الأقمشة

وكانت الجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجار حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كابي رافع الخيبري الذي أرسل بضاعته بواسطة القوافل إلى الشام واسو رد منها الأقمشة المختلفة

ويمكن أن يقال أن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز. ونظرا لما كان عندهم من مال وثروة فقد كان كثير من الأعراب يرهنون عندهم بعض الأمتعة ليسديبوا منهم ما يحتاجون إليه كما يقال عن النبي مُحَمَّد أنه رهن درعا بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيرا لأهله

وكان أخذ الربا شائعا عندهم حتى أن القرآن وجه إليهم بسببه أشد تقريع وأعنف تأنيب " فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما "

ولكن التعامل بالربا في تلك العصور لم يكن خاصا بهم بل كان العرب جميعا يتعاملون به ولا يرون فيه شيئا معيبا مطلقا بل كانوا يعتبرونه نوعا من البيع وكان للمتعامل بالربا في مدينة الطائف شهرة فائقة عند جميع مدن الحجاز وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون بالربا

ومن الصناعات التي كان اليهود في بلاد العرب يزاولونها صناعة الصياغة التي اشتهر بها بنو قينقاع إذ لم يكن لهم صناعة سواها وكان لهم في يثرب حي خاص يعرف بحي بني قينقاع

وقد جاء في الأغاني أن النابغة الذبياني أقبل إلى المدينة يريد سوق بني قينقاع فلما أشرف على السوق سمع الضجة وكانت سوقا عظيمة فحاصت به ناقته فأنشأ يقول : كادت تهدل من الأصوات راحلتي... ما رأيت كاليوم قط لولا أنهنهئتها

بالسوط لاجتدبت، قد ملت الحبس في الآطام واشتعفت

وكانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية التي كانت معروفة في بلاد الجزيرة في ذلك الزمن

ولا غزو أن يكونوا كذلك فإن صناعة الدروع المسرودة اشتهر بها داود (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد) سورة سبأ

أما الزراعة فكانت مهنة بقية البطون التي كانت نعيش في القرى وكانت مجموعة الدوائر الزراعية لتلك البطون هي التي تكونت منها مدينة يثرب كما يتضح ذلك من وصف السمهودي للمدينة

وكذلك كانت الحال في خيبر وفي وادي القرى وتيماء التي اشتملت على أرياف كثيرة

وفوق ذلك فقد كان لليهود شغف بفنون القتال والنضال وقد اشتركوا مع العرب في بعض حروبهم المشهورة

ويتضح لنا من جواب بني قينقاع الذي بعثوا به إلى الرسول بعد يوم بدر أنهم كانوا ذوي قوة وبطش إذ يقولون فيه : يا مُحَّد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم الفرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس كذلك نجد عبدالله بن أبي يفتخر بشجاعة مواليه بني قينقاع...

* * *

أما لغة اليهود في بلاد العرب فكانت بطبيعة الحال اللغة العربية ولكنها لم تكن عربية خالصة بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركا تاما بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراستهم فكان من الضروري أن يدخل في عربيتهم بعض الكلمات العبرية

وقد ذكر صاحب فتوح البلدان أن يهود يثرب كانوا أساتذة العرب في تعلم الكتابة العربية

ويقسم القرآن يهود الحجاز إلى قسمين : أحبار وجهلة أميين " ومنهم أميون لا يعلمون الكتابة إلا أماني وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا " وكلمة حبر هذه عبرية الأصل إذ معناها الرفيق (٦٥٨) وقد كانت تطلق في العصور الأولى ق. م على كل عضو من أعضاء الشيعة اليهودية الدينية الفروشيم (٥٧١٦٦٥ ص ٣٤) ثم لما تغلبت تعاليم هذه الفئة أصبح كل متعلم من اليهود يلقب بلقب حبر ولذلك كان الأحبار موضع الاحترام العظيم كما يتضح لنا من قصة لابن هشام " قال عبدالله بن سلام فأدخلني رسول الله في بعض بيوته ودخل عليه بعض اليهود وكلموه ثم قال لهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا حبرنا وعالمنا

وكان من أعمال الأحبار أن يتولوا القضاء ويفصلوا للناس فيما شجر بينهم كما كانوا أصحاب الأمر والنهي في كل الشئوون الدنيوية كما يقول القرآن الكريم " لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون وكان اليهود يستأنفون الصلاة ثلاث مرات في كل يوم وكانت قبلة اليهود أثناء الصلاة متجهة إلى بيت المقدس كما كانت قبلة رسول الإسلام إلى زمن هجرته للمدينة إذ يحدثنا ابن هشام أن الرسول كان يفدو بمكة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلى بين الركنين البراني والأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام

وقد يؤكد حديث البخاري هذا القول إذ يقول إن رسول الله كان أول ما قدم المدينة يصلي قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكانت اليهود قد أعجبهم إذا كان يصلي قبل بيت المقدس

ويحدثنا ابن هشام أن يهود يثرب كانوا يدعون الناس للصلاة بالنفخ في البوق

وكان اليهود يصومون في العاشوراء فلما قدم النبي مُحَّد المدينة ورآهم يصومونه

قال ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بني اسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال فأنا أحق بموسى منكم فصامه فأمر بصيامه وكانت اليهود تعده عيدا

* * *

وإذا وفقنا إلى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجهة الدين والعقلية فإنه من المتعذر أن نوفق إلى التمييز بين العنصرين من وجهة الأخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لأن اليهود الذين سكنوا في بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم في النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربي

ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم إقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه إلى هذا الحد سوى إقليم الجزيرة العربية

كان اليهود في تفاخرهم وتشاجرهم على حد ما كان العرب تماما في جميع ذلك وكذلك كانوا مثلهم في التمدح بالشجاعة وعلو الهمة وإكرام الضيف والنفور من الجبن والبخل وكانوا يوقدون النيران في الليل ليرشدوا السائرين وليدعوهم إلى الضيافة والإكرام كما كان يفعل العرب إعلاء لشرفهم وصيانة لمجدهم.

ذكر ابن هشام أن حي بن أخطب أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وكان قد أودع رسول الله على قومه وعاقده على ذلك فلما سمع كعب بحي ابن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حي افتح لي أكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله إن أغلقت الحصن دوني ألا تخوفت حشيشتك أن آكل منها فأحفظ الرجل ففتح له

وكما ان قرض الشعر كان طبيعة من طبائع العرب وسجية من سجاياهم وطريقة من أجل طرق التعبير والتفكير لديهم حتى كان المفكر العربي يسترسل في القول الموزون استرسالا يسحر العقول ويأخذ بالألباب كذلك اندفع اليهود في قرض الشعر باللغة العربية اندفاعا قويا فجعلوا ينظمون الأبيات البديعة والقصائد المتينة في الكرم

والوفاء والشجاعة وفي وصف البلدان والحيوان وفي وصف جمال المرأة والتشبيب بها.. وبالاجمال كل ما كان يحرك نفس العربي ويدعوه إلى قرض الشعر من تهديد ووعيد ومدح وثناء وذم وهجاء ووصف وفخر كان يحرك نفوس الشعراء من اليهود في الجاهلية ويدعوهم إلى أن يخوضوا فيه بالقول الفصل والشعر المتين

بيد أن ما وصل إلينا من شعر يهود الجاهلية قليل جدا لا يعدو بضع قصائد وأبيات مبعثرة في أمهات كتب الأدب العربي

وهكذا أفقدتنا الحوادث الكثيرة أكثر تلك الثروة الأدبية من أولئك اليهود الجاهليين ولم تترك لنا منه حتى ما يمكن الباحث الناقد أن يكون له رأيا واضحا عن عقليتهم وتمييز شخصياتهم بعضها من بعض

يقول استاذي الدكتور طه حسين : أما أثر اليهود الأدبي فيسير الفهم لأننا نعلم كيف تؤثر هذه الحركات في العقول ولاسيما عند العرب ونزيد على أثرهم العقلي أنهم كانوا بعدائهم للأنصار ومحاربتهم إياهم شؤما على الأدب العربي وسببا في ضياع الكثير منه واختراع الكثير.. ويصل الدكتور بعد بحث طويل إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود

(١) ان لليهود في الأدب العربي أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب وبين اليهود

(٢) إن اليهود قالوا كثيرا من الشعر في الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب

ان اليهود انتحلوا شعرا لإثبات سابقتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب...

والذي حملني على أن أثبت بعض نظريات استاذي الدكتور طه حسين بصدد شعراء يهود الجاهلية هو :

(١) اني قد جمعت كل ما ينسب إلى شعراء اليهود في الجاهلية ولم أجد فيه فرقا ظاهرا يميزه عن بقية الشعر الجاهلي في حين أن هناك فرقا شاسعا لا يخفى بين اليهود والعرب من وجهة الدين والعقلية واتجاه الأفكار

(٢) لاشك في أن اللغة العبرية تركت في أشعارهم آثارا ظاهرة خصوصا فيما يتعلق بالشعر الديني (litutgie) فقد كانت النزعة الدينية قوية في نفوس يهود الحجاز فليس ممكنا أن لا يوجد هناك شعر ديني يمجد التوحيد وآل موسى وأنبياء بني اسرائيل ويحط من قيمة الأصنام وعبادتها لأن مثل هذا النوع قد ظهر في الأدب اليهودي في كل عصوره القديمة

(٣) إن الذي يمعن نظره في قصائد السموءل يتضح له جليا أنها قد طرأ عليها كثير من التقلبات والتغييرات حتى ليتعذر على الباحث أن يميز القديم منها والحديث أو يفرق بين الصحيح والمنتحل

هذا إلى أن الأبيات القليلة التي وصلت إلينا من شعر اليهود لا تكفي لتخليد أسماء شعرائها مما يجعلنا نجزم بأنه قد كان هناك شعراء مجيدون ولكن ضاع شعرهم ولم يبق لهم منه إلا أسماؤهم كأنها صدى ما كان لهم من شهرة وبعد صوت

(٤) إذا كان العرب أنفسهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على شعر آبائهم وأجدادهم مع أنهم ظلوا كما كانوا عليه لم يصبهم شئ سوى تغيير العقيدة فبقيت لهم لغتهم وتقاليدهم فكيف كان من الممكن أن تحتفظ بشعرها أمة غلبت على أمرها حتى فني منها من فني وهاجر منها من قدر له أن يعيش ولكن في غير البلاد التي نشأ فيها واطمأن إليها وضاعت وراثتهم الروحية ولم يبق لم ذكر في البلاد العربية

ليس من السهل انكار وجود شعراء من اليهود في الجاهلية فقد اشترك اليهود مع العرب في جميع المرافق الحيوية في الجزيرة العربية من اقتصادية وسياسية فبعيد كل البعد ألا يشتركوا معهم في النهضة الفكرية والشعرية

ووجود علاقة دموية متينة بين اليهود والعرب يثبت اشتراك العنصرين في النزعة

الشعرية وأنها كانت مطبوعة في النفس اليهودية وكامنة فيها قبل أن يسكن اليهود في الجزيرة العربية فلما انتقلوا إليها واختلطوا بالعرب وتخلقوا بأخلاقهم نمت هذه النزعة الفطرية وأزهرت ثم أثمرت ثمرها الشهي فقرض اليهود الشعر العربي ارتجالا وتكلفا

وعندي أن السبب في قلة ما وصل إلينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم إنما يرجع إلى ضعف اقبال اليهود على اعتناق الإسلام والذي حافظ على القليل الذي وصل إلينا هم اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ومن تناسل منهم تخليدا لما كان لأجدادهم من مجد أثيل وشرف عظيم

وقد يجوز أنه لولم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموءل لما وصل إلينا من شعره كثير ولا قليل ولا سمعنا حتى ولا باسمه

ويظهر أن الشعراء اليهود الذين وصل ذكرهم إلينا كانوا يعيشون في القرن السادس ب. م. فأدرك بعضهم العصر الإسلامي

ولم نعرف منهم من هو أعظم شهرة وأبعد صيتا من السموءل بن عادياء الذي يُشعر اسمه بأن أصله عبري رغم ما وجد عند بعض الأدباء الأقدمين من الميل إلى إثبات أن هناك صلة بينه وبين بعض الأسماء العربية وقد وجدوا لهذا الاسم في العربية معاني مختلفة فهو اسم لطائر يكنى أبا براء وهو أيضا الظل وذباب الخل السريع

ولا نعرف من ترجمة حياته سوى النزر اليسير

وقال صاحب الأغاني أنه من يثرب وكان صاحب تيماء التي عرفت بتيماء اليهودية وعليها حصنه الابلق الفرد يشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من عظمة وحصانة وهي خراب

وأما الأب الذي طبع ديوان السموءل حسب رواية أبي عبدالله نفطويه فله زعم غريب في السموءل ذلك أنه يزعم أن السموءل كان نصرانيا ويستند في زعمه على ما يأتي :

(١) ان السموءل كان ينسب إلى غسان وغسان كانت نصرانية

(٢) انه في بعض أبيات تنسب للسموءل ذكر للسيد المسيح والحوار بين إما هذه الأبيات التي استدل بها الأب شيخو فهي ما جاء في ديوان الحماسة لأبي تمام في آخر اللامية المشهورة للسموءل

فـإن بـني الـديان قطـب لقـومهم تـــدور رحـــاهم حـــولهم وتجـــول

وكان بنو الديان كما وضح الأب شيخو من نصارى نجران لكن التبريزي يقول في شرحه لهذا البيت أنه لعبد الله الحارثي لا للسموءل... وقبل أن أتعرض لمزاعم الأب شيخو أريد أن أمدح فيه غيرته الدينية إذ هي التي كانت الدافع الأكبر له على طبعه ديوان السموءل وجمعه كل ما قاله العرب في عصورهم المختلفة عن السموءل وهي التي دفعته إلى أن يبذل مجهودا عظيما في سبيل إظهار ديوان السموءل مقرونا بالشرح المفصل والملاحظات السديدة

ولم تقف نزعته الدينية عند هذا الحد بل حملته على أن يبذل مجهودا شديدا آخر في سبيل جمع أشعار أغلب شعراء الجاهلية في مؤلف واحد وتنظيمها تنظيما بديعا وشرح ما فيها من كلمات غريبة كما جاء بارشادات الافرنج في هذا الموضوع وقد أطلق على هذا السفر النفيس اسم شعراء النصرانية بالرغم من أن الحقيقة التاريخية لا تسمح له بهذه التسمية

ولكنه وقد أبى على السموءل أن يكون يهوديا بالرغم من أنه لم يشك أحد في يهودية السموءل فليس عجيبا منه أن يدعي أن جميع الشعراء الذين جمع شعرهم في سفره ليسوا إلا مسيحيين

أما من جهة نسبه فلسنا ننكره ولا ننفيه لأن علماء العرب قد اختلفوا في نسب هذا الشاعر اختلافا كثيرا فبينما الأغاني يقول في موضع أنه السموءل بن عادياء إذا به في موضع آخر يقول : ان غريضا اليهودي هو السموءل بن عادياء

وبينما الميداني في أمثاله يقول أنه السموءل بن حيان عادياء إذا بتاج العروس يقول أنه السموءل بن أوفى بن عادياء وإذا بصاحب معاهد التنصيص يقول أنه ولد الكاهن هارون بن عمران وبينما يقولون ان قبيلته غسان إذا بغيرهم يقول أن أمه فقط التي كانت من غسان

ونحن إزاء هذا الاختلاف والاضطراب في نسب السموءل لا نستطيع أن نطمئن إلى رأي

لكن سواء صح أن السموءل كان من غسان أو لم يصح فليس يدل ذلك على أنه كان نصرانيا بل ليس يدعو للشك في صحة ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كان يهوديا ومن ذا الذي يستطيع أن يأتي ببرهان قاطع على أن كل بطون غسان كانت قد تنصرت بل المرجح أن البطون الغسانية التي لم تذهب إلى حدود الشام بقيت على وثنيتها وان هناك بطنا من بطون غسان كونت حيا من أحياء مدينة يثرب

ومهما يكن من شئ فليس يصح للعالم المحقق أن يستدل بدين بعض بطون قبيلة واحدة على دين كل بطونها فليس من شك في أنه كانت هناك قبائل تدين بطونها بديانات مختلفة

ومن العجيب أن الأب المحترم لا ينكر أن شعبة بن غريض أخا السموءل صاحب حصن تيماء اليهودية كان يهوديا فكيف ينكر يهودية الأخ الآخر

والذي قلبه عن بطون غسان يقال أيضا عن آل بني ديان لكنني أضيف إليه أن الاسم " ديان " على العموم كان من الأسماء المشهورة عند اليهود فكانت كل الأسر التي تحتكر لنفسها مراكز القضاء الشرعي عند اليهود تعرف باسم آل ديان (٣٦) فمن المحتمل أن السموءل الذي كان ينتمي على قول بعض المؤرخين إلى الكهان كان والد أو بعض أجداده حاكما شرعيا فأطلق على الأسرة اسم ديان

يلاحظ الأب الفاضل على ترجمة نفطويه للسموءل ويقول : وفي ديواننا هذا يدعوه الراوي يهوديا وليس قوله مقنعا وقد تبينت أنه مقنع !!...

أما الأبيات التي جاء بها ذكر السيد المسيح والحواريين فواضح أن من السهل على أي شاعر نصراني أن ينحلها السموءل في القصيدة التائية المنسوبة إليه وهذه بعض أبيات القصيدة ننقل منها ما يتعلق بموضوعنا

مدح من يبحث عن الرزق الحلال

ينفــع الطيــب القليــل مــن الــرز	ق ولا ينفــع الكثــير الخبيــث
فاجعـل الـرزق في الحـلال في الكسـ	ب وبــرا ســريرتي مــا حييــت

خمسة أبيات ملفقة

وأتتــني الأنبــاء عــن ملــك داو	د فقــرَت عيــني بــه ورضــيت
وســليمان والحــواري يحــيى	ومــتى يوســف كــأني وليــت
وبقــايا الأســباط أســباط يعقــو	ب دراس التــوراة والتــابوت
وانفـلاق الأمـواج طـورين عـن مـو	ســى وبعــد المملــك الطــالوت
ومصـاب الافـريس حـين عصـا اللــ	ــه وإذا صــاب حينــه الجــالوت

الرجوع إلى موضوع الرزق :

لـيس يعطـي القـوي فضـلا مـن الـرز	ق ولا يحــرم الضــعيف الشــخيت
بـل لكـل مـن رزقـه مـا قضـى اللــ	ــه وان حــزَ أنفــه المســتميت

ويظهر أن الأب الفاضل لم يقنع بزعمه فأضاف إليه قوله " ولعل فصل الخطاب في هذا ما يقال من أن السموءل كان من إحدى تلك الشيع الجامعة بين عادات اليهود وعقائد النصرانية التي اعبرت الأردن وقد حصار الروم لأورشليم فسكنت في بلاد العرب

ويظهر من كلامه هذا أنه غير عالم بتاريخ اليهود في صدر النصرانية فإن مما لا

جدال فيه أنه وجدت طائفة يهودية نصرانية في بادي أمرها في الحين الذي كانت فيه النصرانية دعوة يهودية بحتة وكان النصارى شيعة من شيع اليهود وقد فنيت هذه الفئة بعد أن أخذت النصرانية تنتشر بين اليونان والسريان ولم يبق للطائفة اليهودية النصرانية (chrétienne –secte judéo) ذكر في القرن الثالث ب. م. وليس لنا مراجع تاريخية تثبت وجود طائفة يهودية نصراية منفردة في الجزيرة العربية... وعلى العموم فإن ديوان السموءل لنفطويه مجموعة من الشعر المليح والقبيح والسمين والغث أنتجته قرائح مختلفة فمن شاعر متين إلى آخر سخيف ومن شاعر مطبوع إلى آخر متكلف وأغلبها مزور مدسوس على السموءل

أما القصيدة اللامية التي أولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

والتي يقول عنها صاحب كتاب الطراز أنها تشتمل على مكارم الأخلاق من سماحة وشجاعة وتواضع حلم وصبر وتكلف واحتمال للمكاره... هذه اللامية التي خلدت اسم السموءل ذهبت فيها آراء الأدباء مذاهب شتى حتى أن الأغاني يقف إزاءها موقف الحائر المضطرب فيقرر طورا أنها لشريخ بن السموءل ويقول مرة أخرى أنها للسموءل نفسه وينسبها في موضع ثالث لشاعر غير معروف اسمه دكين العذرى(أ)

ولا شك أن اختلاف أقوال الأغاني ناشئ من تعدد الروايات التي كانت أمامه وكذلك اختلف الرواة في نقل القصيدة اختلافا كبيرا فمنهم من يقدم بعض أبياتها على بعض ومنهم من يعكس عمل الآخر ومنهم من يزيد فيها ومن ينقص فهذه الأخلافات في نسب مؤلف القصيدة وهذه التصرفات المتباينة في ترتيب أبياتها تنتج حتما الريبة في نفس الباحث في صحة نسبتها للسموءل

والذي يقرأ القصيدة الفريدة المنسوبة للسموءل في كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي الذي يعتبر ثقة في جمعه شعر الجاهلية نظرا لقدمه وسلامة ذوقه ودقة

نقده يأخذه العجب حين لا يجد للسموءل إلا أبياتا قليلة مع عدم تنبيه ابن سلام على وجود أبيات أخرى للسموءل

وقد جاء ابن سلام بقصيدة لشعبة بن غريض بينما نسب ابن نباته في شرحه لرسالة ابن زيدون نفس هذه القصيدة للسموءل وهي القصيدة التي مطلعها يا ليت شعري حين أندب هالكا   ماذا تريثني به أنواحي....

وللسموءل أبيات لا يشك في صحتها القدماء

وفيـــــت بأدرع الكنـــــدي إني   إذا مــــا ذم أقــــوام وفيـــــت

وأوحـــــي عــــاديا يومــــا بأن لا   تهــــدم يا سمــــوءل مــــا بنيــــت

بــــنى لي عــــاديا حصــــا حصــــينا   وبئــــرا كلمــــا شــــئت اســــتقيت

والذي قيل في شعر السموءل يمكن أن يعتبر مقياسا صالحا للبحث في شعر بقية يهود الجاهلية إذ لا يمكننا بوجه من الوجوه أن نقول قولا فصلا بأنها وصلت إلينا عن يهود الجاهلية

والشخصية البارزة بعد السموءل هي شخصية كعب بن الاشرف وكان من أصحاب النفوذ والبطش بالسيف واللسان لا على اليهود فحسب بل على قريش أيضا وقد كان عربيا أكثر منه يهوديا إذ كان أبوه من غرب طي وأمه من بني النضير وقد توفى أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر وأمره وكان شاعرا فارسا وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج وكان شاعرا فحلا وخطيبا فصيحا وكان يهجو النبي ويهجو أصحاب فبعث النبي نفرا من أصحابه فقتلوه في داره

وأما الأبيات التي ينسبها ابن سلام الجمحي لكعب بن الاشرف والتي تشتمل على وصف دقيق لدار وصفها وصفا صادقا موجزا فإنها تشهد لشاعرها بأنه كان مبدعا في أسوبه معجبا بالمناظر الطبيعية وهذه هي الأبيات:

رب خـــال لي لـــو أبصـــرته   ســـبط المشـــية أباء أنـــف

لـــين الجانـــب في أقربـــه   وعلـى الاعــداء ســم كــالزعف

ولنـــا بئـــر رواء جمـــة   مـــن يردهـــا بإناء يغـــترف

ونخيـــل في قـــلاع جمـــة   تمـــزج التمـــر كأمثـــال الاكـــف

وحريـــر في محـــال خلـــة   آخـــر الليـــل أهـــازيج بـــدف

وقد نسب إليه ابن هشام قصيدة في رثاء قتلى يوم بدر من سراة وعظماء مكة

طحنـت رحـى بـدر لمهلـك أهلـه   ولمثـــل بـــدر تســـتهل الأدمـــع

قتلـت سـراة النـاس حـول حياضـهم   لا تبعـــدوا إن الملـــوك تصـــرَع

ومع أنها تلائم الحالة السياسية التي كان عليها كعب بن الأشرف وبقية قريش بعد يوم بدر ويحتمل أن قائلها كان كعب بن الأشرف فلنا الحق أيضا أن نشك في صحتها إذ لا يمكن على الإطلاق الاعتماد على كل ما سرد في كتاب السيرة فكثيرا ما نعثر فيه على قصائد طويلة ينسبها ابن هشام لبطون حمير في حين تدل لغتها على أن قائلها من قريش فكيف يمكننا أن نثق بنسبته هذه القصيدة إلى كعب بن الأشرف... على أن الاستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار يقول إن وجود شعر منسوب إلى حمير بين أو قحطانيين بلغة مضر لا يقتضي أن يكون مورده في السيرة قد نحله غير قائله وحمله عليه كذبا وإن كان المنسوب إليه جاهليا

ذلك أن اللغة المضرية قد اقتحمت على لغات أهل اليمن مواطنها وتغلغلت في أحشائها وآية ذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد وفدت عليه وفود قبائل اليمن القاصية والدانية ولم يكونوا يحتاجون في مخاطبتهم لرسول الله وحوارهم له ولأصحابه إلى ترجمان يعبر عما يجول بخواطر الفريقين من المعاني التي يريد كل فريق أن يلقيها إلى الآخر. وهذا عليَ عليه السلام ومغاذ ﷺ أرسلهما رسول الله إلى اليمكن

ولم يحتاجا إلى مترجم يترجم لكل منهما كلام من أرسلوا إليهم، وهذا كما قلت دليل على أن المضرية قد سادت لغات العرب قبل الإسلام وصارت من القوم بحيث لا يستكثر مستكثر أن يقول بها الحميري أو القحطاني شعره الذي يريد أن يذيعه بين العرب... أه.

ثم إن هناك اسما آخر يلفت عنايتنا وهو سارة القريظية التي ينسب إليها شعر في رثاء قومها بعد أن قتل أبو جبيلة أشراف اليهود حيث تقول:

بنفسي أمة لم تغن شيئا ... بذي حرض تعفيها الرياح

كهول من قريظة أتلفتها ... سيوف الخزرجية والرماح

رزئنا والرزية ذات ثقل ... يمر لأهلها الماء القراح

ولو أربوا بأمرهم لجالت ... هنالك دونهم جاوي رداح

ولو صحت هذه الرواية لكان من الممكن أن نستدل بها على أن المرأة اليهودية كانت تشترك اشتراكا فعليا في جلب الرزق لأسرتها من ناحية وفي نمو القوى العقلية من ناحية أخرى.

وليس ذلك بغريب على الفتاة الاسرائيلية بوجه عام في جميع أدوار تاريخ أمتها إذ قد ظهر من الجنس اللطيف اليهودي النابغات والشاعرات والبطلات والملكات.

الباب الثاني

ظهر اليهودية في بلاد اليمن

أسباب انتشار اليهودية في بلاد اليمن – اضطراب أقول المؤرخين في هذا الباب – العوامل الدينية والسياسية لظهور اليهودية في بلاد اليمن – مطامع الدول الرومانية الشرقية في بلاد اليمن – لماذا انتشرت اليهودية في بلاد اليمن ؟ – وقت ظهور اليهودية في اليمن – آراء المستشرقين – رأي المؤلف – أقوال مؤرخي العرب في ملوك حمير اليهود – أسباب اعتناقهم اليهودية – رأي ابن هشام والطبري – أول ملوك حمير اليهود – يوسف ذو نواس – حياته كما ذكرها ابن هشام – اضطهاده أهل نجران – أسباب ذلك الاضطهاد – ذكر القرآن الكريم لقتلى نجران – استنجاد أهل نجران بالروم – اغارة الحبشة على اليمن – تحقيق الحبشة مطامع الدولة الرومانية الشرقية في بلاد العرب – عام الفيل – تأثير هزيمة الدولة الحميرية في نفوس اليهود

بعد أن بينا الأسباب التي أدت إلى انتشار الديانة اليهودية في شمال بلاد الحجاز نريد أن نوضح العوامل الأخرى التي دعت إلى ظهور الدين اليهودي في بلاد اليمن

لم تعتمد الديانة اليهودية في بلاد اليمن على العصبية اليهودية كما كان شأنها في البلاد الحجازية لأن الأغلبية المطلقة التي كونت أنصار هذا الدين الجديد في اليمن كانت من سكان البلاد الأصليين

وقد اضطربت أقوال المؤرخين في أسباب ظهور الديانة اليهودية في ربوع بني حمير فطائفة منهم ترى أن ظهورها كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية والنصرانية تمكنت فيه الأولى من أن تتغلب على الأخرى في بادئ الأمر ومن هذه الطائفة العلماء (**Graetz Wellhausen Halevy**)

وطائفة أخرى تعترف بأن للعامل الديني أثرا ظاهرا ولكنها ترجح أن الباعث الأصلي إنما هو سياسي قبل كل شئ ومن هذه الطائفة العالمان (Glaser Winkler) وهذا الباعث الأصلي الذي تراه الطائفة الأخيرة هو أن ملوك الدولة الرومانية الشرقية بعد أن فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية تأهبوا لضم أطرافها إلى أملاكهم فسلكوا لتنفيذ هذا الغرض طريقة سياسية محكمة حيث أرسلوا وفودا من الرهبان إلى تلك البلاد وأمروهم أن يبثوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ويمهدوا الأفكار والنفوس لقبول التسلط السياسي الروماني من جهة أخرى فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسي من الخطر الشديد بسببها نشطوا لإحباطها وفكروا في أمضى الأسلحة التي تمكنهم من القضاء عليها فهداهم فكرهم إلى أن يعتنقوا الديانة اليهودية ليقاوموا دينا توحيديا بدين توحيدي آخر

وقد أصاب ملوك حمير في هذه الفكرة كل الإصابة لأن اعتناقهم لليهودية قضى على كل الحجج التي كان ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها في الترويج لدعوتهم السياسية وانقطعت الوسائل التي كانوا يتوسلون بها للتأثير في عقول أفراد الشعب وجماعاته

على أن هناك عاملين آخرين لظهور الديانة اليهودية في بلاد اليمن لم يصرح بهما المؤرخون :

الأول : أن ملوك حمير لم يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ولم يكن لليهودية في ذلك العصر دولة سياسية في حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في فتح بلادهم

ومن هنا نفهم السر في مقاومة الرهبان واضطهاد أهل نجران والنفور من الحبشيين لأنهم جميعا كانوا آلة في أيدي السادة من ملوك قسطنطينية

الثاني :- وله أثر كبير في انتشار اليهودية في بلاد اليمن - وهو أن تعاليم الديانة اليهودية ومبادئها أقرب إلى عقلية العرب من الديانة المسيحية التي كانت تستمد يومئذ بعض تعاليمها من الفلسفة اليونانية

ومع أنه كان هناك في شمال الجزيرة قبائل عربية اعتنقت الديانة المسيحية فإني اعتقد أن النصرانية كما كان اليونان وغيرهم يفهمونها لم تتغلب في وقت ما على النفوس العربية بدليل أن البطون العربية المسيحية دخلت في الدين الإسلامي بعد اتصالها بجيوش الخلفاء الراشدين بلا كبير مقاومة في حين كان اليهود في شمال الجزيرة وجنوبها يدافعون عن الديانة اليهودية دفاعا شريفا. فيقاتلون جيوش الحبشة في اليمن قتالا شديدا رغم ما كانت عليه هذه الجيوش من قوة البأس وكثرة العدد اللتين بواسطتهما فقط استطاعت أن تظهر على اليهود وأن تفرقهم وتمزقهم

كذلك لم يلب اليهود دعوة رسول الإسلام ولا ينقص من قيمة هذه الحقيقة أن أفرادا من اليهود دخلوا في ملة النبي مُحَّد وولايته

ويؤيد هذه الحقيقة ما جاء في البخاري حيث قال : لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود

وتاريخ ظهور اليهودية في بلاد حمير موضع جدل عنيف بين علماء الأفرنج حتى الآن

فيقرر المستشرق (**Procoke**) وهو من علماء القرن الثامن عشر أن دولة حمير اليهودية ظهرت في القرن الأول ق. م

ولكن العلماء يعارضون في هذا الرأي ويقولون أنه لو صح هذا الحدس لكان يوسف المؤرخ اليهودي قد تكلم عن هذه الدولة اليهودية كما ذكر ظهور دولة آرامية متهودة على أطراف نهر الفرات النائية عن فلسطين وهي دولة حديب

ويقرر العالم (**silvester de sacy**) في كتابه أن ظهور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثاني ب. م. ولكن المؤرخ اليهودي شيفر ينكر صحة هذا الرأي ويقول

لو وجدت هناك دولة يهودية في القرن الثاني بعد الميلاد لكان التلمود يملأ صحائف غير قليلة بذكر أخبارها وسرد الأساطير عنها فسكوت التلمود عن هذه الظاهرة التاريخية أعظم دليل على عدم وجودها في قرون تأليفه (ختام التلمود في القرن الرابع بعد الميلاد)

ثم ظهرت في المجلة الأسيوية الفرنسية مقالة قيمة ناقض فيها العالم پرون (Perron) جميع نظريات من ذكرنا ويقول أن دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا في القرن الخامس بعد الميلاد ويستدل بما ذكره الطبري في هذا الشأن ويقول أن أحيحة الذي قاتل تبان أسعد أبي كرب ملك حمر وصاحب الدعوة اليهودية طلق زوجه سلمة فذهبت إلى مكة حيث تزوجت من هاشم أبي عبدالمطلب جد النبي مُحَّد وهذا يدل على أن مقاتلة تبان أسعد لأهالي يثرب إنما كانت حوالي نهاية القرن الخامس ب. م.

ثم ما ذكره الطبري من أنه كان لتبان أسعد بنون ثلاثة حسن وعمرو وذرعة، وذرعة هذا على حسب رواية ابن هشام هو ذو نواس آخر ملوك حمير وإذن لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون هذه الدولة قد عاشت قبل القرن الخامس ب. م.

لا شك أن حجة ببرون (Perron) أمتن وأصح من نظريات غيره ممن ذكرناهم بيد أن هذه الحجة لا تنتج الجزم القاطع لأنها مبنية على أقوال ليست محل ثقة تامة لأن هناك شكا في بعض الحوادث التاريخية التي ذكرناها

أما أنا فأرجح أن ظهور اليهودية في بلاد اليمن قد حدث قبل تُبان أسعد إذ من الصعب أن تقتنع بأن قيلا واحدا يستطيع أن يرغم أقيال حمير على اعتناق دين جديد دون أن يحدث ذلك فتنا داخلية وأن عدم وجود معارضة للدين اليهودي ليدل على أنه كان هناك أناس من ذوي النفوذ السياسي سمحوا للديانة اليهودية التوحيدية أن تتسرب إلى اليمن وتركوها تنتشر شيئا فشيئا أو ساعدوا على انتشارها بين الشعب من قبل أن يعلن تُبان أسعد أنها صارت دين البلاد

على أن المعقول أن يكون اليهود قد وجدوا في تلك الأرجاء منذ أزمان بعيدة إذ

لا يمكن أن يكون اليهود انتشروا في بلاد الحجاز في حين لا يكون منهم أحد في بلاد اليمن لاسيما وعدد كبير من اليهود تجار دأبهم التنقل والارتحال لتبادل البضائع في مختلف البلدان فلابد أن تكون هناك جموع يهودية قد وصلت إلى ثغور اليمن وحضرموت ثم توغلت إلى الداخل شيئا فشيئا

ويقول الاستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار إن علاقة اليهود باليمن قديمة جدا يرجع تاريخها إلى أيام ملك سليمان بن داود فقد جاء في سفر الملوك الأول في الأصحاح العاشر آية ما نصه (وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم وكلمته بكامل ما في قلبها إلى آخر ذلك الأصحاح – والأصحاح التاسع من أخبار الأيام الثاني من آية إلى آية (١٢) مثل عبارة أخبار الملوك الأول تكاد تكون إحداها منقولة من الأخرى وكلها في وصف سليمان وحكمته واندهاش ملكة سبأ منه وتقديمها إليه الهدايا والتحف التي أتت بها من بلادها وثنائها على سليمان وإله سليمان ثم عودتها إلى بلادها – وقد وردت قصة سليمان مع ملكة سبأ في سورة النمل وهي السورة السابعة والعشرون من القرآن من أول الآية العشرين إلى آخر الآية الرابعة والأربعين ومما جاء فيها حكاية قول الملكة لقومها عن كتاب سليمان " قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون " ومنها (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبل وكنا مسلمين) ومنها (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)

وأخبرني السيد محمد بن عقيل من سادات المكلة أنه قرأ في تاريخ الجندي من نحو

خمسين سنة أن اليهود حين غلب الحبشان على اليمن رحلوا إلى حضرموت وكان مقامهم بتلك النواحي إلى خروج الحبشان من اليمن – اهـ....

وقد أثبت العالم جلازر (Glaser) وجود اليهود في اليمن وحضرموت منذ عصور كثيرة قبل ظهور الإسلام وإذن فهؤلاء اليهود هم الذين أنبتوا النبات في النفوس وتعهدوه حتى ترعرع ثم تأصلت جذوره وظهر الميل عند قيل أو عدة أقيال لاعتناق اليهودية كما اعتنقت بطون عربية الديانة المسيحية بسبب نفوذ الرهبان وانتشار الدعوة إليها تدريجا وقد كانت هناك جموع من العرب المتهورة وهي بطون كنانة وبني الحارث بن كعب وبني كندة سكنوا جميعا بجوار مكة

وقد يكون في حكم الممكن أنه بعد أن قفل تُبان أسعد راجعا من يثرب جمع الأقيال المتهودة وكون فيها دولة حميرية يهودية لصد هجوم الدولة الحبشية وسد السبيل في وجه مطامعها ولمنع انتشار النصرانية التي كان ملوك الروم يتوسلون بها إلى تنفيذ مطامعهم الاستعمارية

* * *

أما مؤرخو العرب فيأتون بقصة طويلة تشير إلى سبب جدير بالاعتبار لظهور الدولة اليهودية في اليمن

يقول الطبري كان تبان أسعد حين أقبل من المشرق جعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها في بدأته خلف بين أظهرهم ابنا له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع على تخريبها واستئصال شأفة أهلها وقطع نخلها غير أن سكان المدينة كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فأعجبه ذلك منهم فبينما هو على ذلك من حربه لهم إذ جاءه حيران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان حين سمعا ما يريد من اهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينهم ولم تأمن عليك عاجل العقوبة لأن يثرب مهاجر نبي يخرج من هذه البلدة من قريش في آخر الزمان فتناهى عند ذلك الذي سمع من قولها عما كان يريد بالمدينة

ورأى أن لهما علما وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة وخرج بهما إلى اليمن واتبعهما على دينهما...

وكذلك يروي هذه القصة صاحب السيرة النبوية وغيره من بقية مؤرخي العرب دون أن يزيدوا شيئا

بعد ذلك يقول الطبري : لما توجه تبان أسعد إلى اليمن مع جنوده حالت حمير بينه وبين دخوله إلى بلاده وقالوا لاتدخلها وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال انه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا إلى النار فوافق الملك وكانت باليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ولما قالوا ذلك لتبان قال أنصفتم فخرج قومهم بأوثانهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها حتى قصدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من النار وأمروهم بالصبر فصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى جباههما لم تضرهما فأصفقت حمير عند ذلك وعند ذلك كان أصل اليهودية باليمن...

ولكني أميل إلى انكار صحة هذه القصة بغض الطرف عن أنها خرافة لأن الأمم لا تبدل أديانها كما تبدل الأفراد ثيابها بل أن التغييرات السياسية والدينية إنما تحصل اما بتغيير بطئ وانقلاب عقلي متدرج في برهة طويلة مستمرة واما بالثورة العنيفة تهدم القديم مرة واحدة وتبني الجديد مرة واحدة أيضا....

والذي نعلمه عن حسن بن تبان أسعد أبي كرب هو أنه سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير المسير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فكلموا أخا له يقال له عمرو وكان معه في جيشه فقال له اقتل أخاك حسن ونملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذا رعين الحميري فإنه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه فقال ذورعين

ألا مـــن يشـــتري ســـهرا بنـــوم   ســـعيد مـــن يبيـــت قريـــر عـــين

فأمـــا حمـــير غـــدرت وخانـــت   فمعـــذرة الآلـــه لـــذي رعـــين

ثم كتبها في رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرا فقال له ضع لي هذا الكتاب عندك فقبل ثم قتل عمرو أخاه حسن ورجع من معه إلى اليمن فلما نزل عمرو بن تبان اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فلما أجهده ذلك سأل الأطباء والحزاء من الكهان والعرافين عما به فقال له قائل منهم أنه والله ما قتل رجل قط أخاه بغيا على مثل ما قتلت أخاك عليه إلا ذهب نومه وسلط عليه السهر فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه حسن من إشراف اليمن حتى خلص إلى ذي رعين فقال له ذورعين أن لي عندك براءة فقال وما هي قال الكتاب الذي دفعت إليك فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه وهلك عمرو... فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له لخنيعة ينوف فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة إلى أن تغلب عليه ذرعه ذو نواس ابن تبان أسعد أخي حسن وكان صبيا حين قتل حسن ثم شب غلاما جميلا ذا هيئة وعقل

ويمكننا أن نستنتج من هذه الحوادث أن الوهن والضعف تغلبا على الدولة بعد موت تبان أسعد أبي كرب وأن موجبات الكراهية والتحاسد والتنافس قد فشت بين أفراد الأسرة المالكة فانفسح المجال أمام رواد الفتن ومحبي الاضطراب فلعبوا دورهم باتقان ونجاح

ولا نعلم مبلغ تأثير هذه الفتن والاضطرابات على دين الدولة ولا ماذا كانت ثورة لخنيعة ينوف متجهة إلى الأسرة الحاكمة فقط أو كانت الفكرة متجهة أيضا إلى هدم كيان اليهودية في اليمن فإن جميع المصادر العربية لم تشر أقل إشارة إلى شئ من هذا

ولكننا مع ذلك نميل إلى ترجيح أن يكون الثوار قد رموا بثورتهم أيضا إلى هدم اليهودية إذ لابد من آلة يستعملونها للتأثير في نفوس الشعب وتهييج عواطفه وخير

وسيلة لذلك إنما هي أن يظهروا بمظهر المدافعين عن عقيدة الآباء والأجداد ودين البلاد الأصلي لاسيما وقد كان كثيرون من الأقيال لم يستبدلوا بعد الديانة الوثنية بغيرها

ومن المحتمل أن الثائرين كانوا يستمدون قواهم وأموالهم من الخارج ويرجح هذا الاحتمال ما جاء في بعض المراجع اليونانية من أن ثورة وثنية ثارت ضد ذي نواس كما سنوضح ذلك فيما بعد

وقد جاء في المصادر اليونانية كثير من الأخبار عن ذي نواس هذا كما جاء منها الكثير أيضا في المراجع العربية

يعتقد العالم **Perceval** أن ذا نواس حكم بلاده من سنة **٤٩٠ – ٥٢٥** ب. م في حين يقول شيفر إن ذا نواس ارتقى العرش سنة **٥٢٠ – ٥٣٠** ب. م

ويتضح لمن يبحث في ترجمة حياته أنه لم يكن أول ملك يهودي بدليل أن تربيته كانت يهودية محضة وأنه كان في عقليته وميوله يهوديا متعصبا لدينه مما يحمل على الاعتقاد بأنه قد لقن أساس الديانة الاسرائيلية من نعومة أظفاره

بذل علماء البحث والتنقيب جهودا كثيرة في سبيل العثور على شئ من آثار الدولة الحميرية المتهودة ولكنهم لم يعثروا على شئ منها مطلقا

وهذا يدل على أحد أمرين

(١) أن هذه الدولة لم تجد من الوقت ما يكفي لإنشاء الأعمال العظيمة والآثار الخالدة التي ترشد الخلف وتدل الأجيال المقبلة على ما كان لها من قوة بأس وعظم سلطان

(٢) أن الضغط الحبشي الذي قضى على دولة حمير المتهودة محا كل ما كان له علاقة باليهود وقضى على جميع آثار دولتهم لأن النزاع الذي كان بين الحبشة ودولة حمير المتهودة لم يكن نزاعا سياسيا فقط بل كان نزاعا سياسيا ودينيا في آن

واحد ونحن نعلم أن الحروب الدينية أشد هولا من السياسية وفيها يبذل المنتصرون كل مرتخص وغال في سبيل استئصال شأفة الدين المغلوب ومحو آثاره

ويحدثنا ابن هشام عن حياة ذي نواس بقوله : وتسمى ذو نواس يوسف فأقام في ملكه زمنا. وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم وهم أهل فضل واستقامة فار إليهم ذو نواس بجنوده ودعاهم إلى اليهودية فخيرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل فخدلهم الأخدود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف من قتل ومثل بهم حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا....

والذي يعلم أن نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة يدهش لهذه المبالغة في عدد القتلى إذ لم يكن عدد سكانها يزيد عن بضع مئات وفضلا عن ذلك فإن ذا نواس لم يقتل كل أهالي نجران بدليل أن لهم ذكرا في أخبار صدر الإسلام وإذن فليس من شك في أن عدد القتلى من نصارى نجران لم يدرك عشرين ألفا بوجه من الوجوه فهي مبالغة ظاهرة سببها أن اضطهاد ذي نواس للنصارى كان عنيفا جدا حتى أنه ترك آثارا هاجت النفوس العربية في البادية والحاضرة

وقد خلد القرآن الكريم ذكرى قتلى نجران بآيات من ذهب : قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد...

أما المصادر اليونانية فنقول إن معاملة ذي نواس لنصارى نجران لم تكن إلا رد فعل لاضطهاد الدولة الرومانية لليهود حيث كانت تذيقهم الأمرين بواسطة عمالها في كل بلادها باسم الدين

بعد تلك الاضطهادات التي أصابت نصارى نجران حدث : أن أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم فقال له بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا

الدين وهو أقرب إلى بلادك وكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة وأمر عليهم رجلا يقال له ارياط ومعه في جنده ابرهة الأشرم فركب ارياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان وسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقى الجمعان انهزم ذو نواس وأصحابه... ولم يستطيعوا الثبات أمام جيش النجاشي فاتجه ذو نواس نحو البحر وضرب فرسه فخاض به ضحضاحه حتى أفضى به إلى غمره...

على أن المؤرخ اليوناني يوحنا من مدينة افزوس يقص خبرا لم تقصه المراجع العربية وهو أن دومينوس الحميري قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم واستمر يعامل تجار الروم بالقسوة والعنف ويضطهدوهم اضطهادا شديدا كلما مر منهم أحد ببلاد اليمن حتى انقطع جميع التجار المسيحيين من دخول بلاد اليمن فأصيبت الأسواق التجارية اليمنية بالكاد وضعفت فيها الحركة ضعفا شديدا لأن هذه الأسواق كانت تستمد حياتها الاقتصادية مما تصدره إلى الخارج من الحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية ومما يرد إليها من حاصلات البلاد الأخرى وكانت ثغور بلاد اليمن هي الواسطة بين الهند وبين جميع الأصقاع الشرقية والغربية فكانت أسواقها لذلك شديدة الحركة كثيرة المعروضات وملتقى تجار كل هذه الجهات

لم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون إلى شل حركة أسواقهم بعين الرضى لذلك تقدم ايدوج قيل من أقيال اليمن الوثنيين إلى ذي نواس وقال له أن أعمالك القاسية ستؤدي إلى نقل الحركة التجارية من ثغورنا إلى ثغور أعدائنا فأجابه ذو نواس بقوله إن أخواني اليهود في بلاد الروم يذوقون ألوانا شتى من الأهوال والتعذيب فأنا أريد أن أكف أيدي الروم عن اقتراف الاثم بالابرار بمعاملتي لتجارهم هذه المعاملة السيئة...

ولم يرتض ايدوج هذا الجواب ولم يوافق على هذه السياسة التي يرى أنها ستؤدي إلى خراب البلاد ففكر في أن يتخلص من ذي نواس فاتفق مع باقي أقيال اليمن الوثنيين وجمع بواسطتهم جموعا كثيرة قاتل بها ذا نواس حتى تغلب عليه وقتله ثم اعتنق ايدوج الديانة النصرانية....

هذه هي رواية المؤرخ اليوناني يوحنا وهي تخالف ما نقلنا عن المصادر العربية من أن جيوش الحبشة هي التي قضت على دولة ذي نواس

ونحن نرجح ما روته المراجع العربية لأن انكر غزو الحبشة لليمن غير ممكن مطلقا نظرا لأنه قد يؤدي إلى انكار حوادث هامة أخرى حدثت في بلاد اليمن والحجاز بعد ذلك بزمن قليل

على أن لدينا شهادة لقائد من قواد الجيش الروماني الشرقي الذي كان يحارب في العراق ضد الجيش الفارسي أثناء وقوع حوادث اليمن هذه وهو يقصها بأسلوب لا يتعارض مع ما جاء في كتاب السيرة لابن هشام ويعرف هذا القائد باسم (Prokop) بروكوب وهذه هي شهادته.. وقد استعد ملك الحبشة (Hilistiaus) الذي كان يغالي في دينه لمحاربة ذي نواس لأنه كان يأخذ الأموال من تجار النصارى بغيا ثم جاء بجيش عظيم إلى باب المندب وشن الغارة على سواحل بلاد حمير فسار ذو نواس إليه ولكنه انهزم هزيمة منكرة وهلك

ولست أميل إلى الرأي القائل بأن رواية المؤرخ يوحنا من مدينة افزوس مختلفة بل أفترض أنها حدثت أثناء الاضطرابات الداخلية التي حدثت بعد قتل حسن بن تبان أسعد أبي كرب إذ قد يحتمل أن لخنيعة ينوف الوثني أو غيره طمع في عرش دولة حمير وحارب ملكا من ملوكها وقتله وحكم البلاد بعده برهة إلى أن ثأر أحد أفراد الأسرة التي كانت مالكة للملك المقتول وأعاد النظام إلى نصابه وأخذت المياه تجري في مجراها

وهذا الفرض لو رجحت صحته يؤيد بقية ما أشرنا إليه من اضطراب حبل الأمن بعد أن قتل حسن بن تبان أسعد

ومهما يكن من شئ فقد كللت مساعي الحبشة وجهودها ضد الدولة الحميرية المتهودة بالنجاح وتم لها القضاء على هذه الدولة قضاء نهائيا

وقد اشترك يوسطين اشتراكا فعليا في فتح اليمن لأنه أرسل أسطول مصر

البحري مشحونا بالمؤن والأسلحة إلى الثغور اليمنية ويرجح بعض مؤرخي الافرنج أن جيوش يوسطين كانت معتزمة أن تحل اليمن بعد أن فتحتها الحبشة ولكن قوات الفرس أقلقت راحتها على حدود سورية فمنعتها من ذلك

بعد أن خصدت الحبشة شوكة الدولة الحميرية اليهودية في بلاد اليمن اتجهت نحو الوثنية تريد هدمها وكان من مجهوداتها في هذا السبيل بناء أبرهة لكنيسة القليس المشهورة في صنعاء ليصرف إليها حج العرب

غير أن النسأة وهم رؤساء الديانة الوثنية قاوموا فكرته ووقفوا سدا في سبيل تحقيق غرضه فصمم أبرهة على تنفيذ فكرته بالقوة وخرج بجيش كبير إلى مكة يريد هدم الكعبة وإبطال عقائدها غير أنه لم يوفق أيضا لأن جيشه انكسر انكسارا شنيعا فعاد منهزمنا إلى اليمن كما يحدثنا ابن هشام بأخبار هذه الحملة المعروفة بعام الفيل

وقد أشار القرآن إلى هذه الواقعة في سورة الفيل حيث يقول " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول "

وقد كان لانكسار الدولة الحميرية أمام الحبشة رنة أسى شديدة في قلوب اليهود فظهرت مع الزمن أقاصيص كثيرة وأساطير خرافية عن ابطال حمير، فمن ذلك ما قيل أن أصل هؤلاء من بقايا أسباط بني اسرائيل البائذة وان هذه الجيوش لم تغلب على أمرها بل رجعت على أعقابها إلى داخل البلاد الرملية وأنها كونت في تلك الأرجاء دولة عظيمة يظهر بطشها في اليوم الذي يتاح لها فيه النضال ويؤذن لها بخوض المعارك

وقد كانت هذه الأقاصيص سببا في أن شرع جماعة من اليهود في القرون الوسطى يرسلون إلى بلاد العرب ليبحثوا عن تلك الجيوش التي توارت عن العيون....

الباب الثالث

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود – تأثير انكسار الدولة الحميرية في حياة اليهود ببلاد العرب – تحرش الدولة الرومانية الشرقية باليهود في بلاد العرب – هجرة بطون الأوس والخزرج إلى جهات يثرب. اضطراب أقوال مؤرخي العرب في زمن هذه الهجرة – نص ابن هشام – رأي صاحب الأغاني – رأي الأستاذ الحضري بك – سيل العرم وزمن حدوثه – آراء المستشرقين فيه – نتيجة أبحاث العالم جلارز في هذا الموضوع – سوء حال الأوس والخزرج – أوائل هجرتهم – وصف السمهودي لليهود وبطون الأزد أثناء سيادة الوفاق والصفاء بينهم – انقلاب الصفاء إلى عداء بين اليهود وبني الأزد وأسبابه – قصة السمهودي عن الملك الفيطون – رأي المؤلف فيها – رأي صاحب الأغاني في سبب ظهور العداوة بين اليهود والعرب – من هو أبو جبيلة ؟ – لماذا نزح أبو جبيلة لمحاربة يهود يثرب ؟ – هل كانت هناك محالفة بين بطون الأزد وملوك غسان ؟ – الارتياب في صحة قصة أبي جبيلة واضطهاده ليهود يثرب – ملوك غسان والدولة الرومانية الشرقية – الكفاح العنيف بين اليهودية والنصرانية في الجزيرة – يوم بعاث – قيمة حوادث يوم بعاث – حياة العرب في الجاهلية – نتائج يوم بعاث

يقول العلماء ان النكبة الشديدة التي نزلت باليهود في بلاد حمير قد أنتجت نتائج سيئة لم يكن في الإمكان أن تحدث لولا هذه النوائب

وأهم هذه النتائج تحمس العناصر النصرانية التي كانت تعتمد على مؤازرة الدولة الرومانية ضد الديانة اليهودية وتحركها لهدم كيانها والقضاء على أصولها ومبادئها في جميع أنحاء الجزيرة العربية وتهيج طمع القبائل العربية في أموال اليهود ومستعمراتهم ورغبتهم في الحصول عليها والاستئثار بها.

وقد كانت القبائل العربية قبل ذلك أي في العصر الذي نمت فيه اليهودية في بلاد اليمن وانتشرت بين سكانها لا تجرؤ مطلقا سواء منها الحضري والبدوي على أن تمس اليهود بأذى في شمال الحجاز أو تصيبهم بأدنى ضرر بل بالعكس تسرب نفوذ اليهودية في ذلك الشطر من الزمن بين الأعراب حتى صاروا يدخلون فيها زرافات ووحدانا مما حمل بعض المستشرقين من أنصار **Wustenfeld** على الاعتقاد بأنه قد ظهرت في يثرب دولة يهودية امتد سلطانها السياسي حتى شمل شمال الحجاز بأجمعه

ولكن الواقع ان هذا رأي مبالغ فيه إذ ليس عندنا مصادر موثوق بها تؤيد وجود دولة يهودية في شمال الحجاز اللهم إلا إذا استثنينا قصة خرافية عن الفيطون ملك يثرب وليس لها في الواقع ظل من الحقيقة كما سيأتي بيانه

ونريد قبل أن نوفي حوادث اليهود مع العرب في شمال الحجاز حقها من التفصيل والبيان أن نوجه الأنظار إلى البطون العربية المجاورة لهم وهي التي نلم بأخبارها بعض الإلمام. يقول ابن هشام عن هجرة الأوس والخزرج إلى جهات يثرب : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن أنه رأى جرذا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو ولا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وقالت الأزد لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلدان فتزل آل جفنة الشام ونزلت الأوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا...

ويتضح لنا من قصة ابن هشام أن نزوح الأوس والخرزج إلى جهات يثرب حدث قبل سيل العرم لكن صاحب الأغاني يعتقد أن خروج الأزد من اليمن حدث بعد سيل العرم ويقول : لما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب وهم الأزد قام رائدهم

فقال من كان ذا جمل مفن ووطب مدن وقرية وشن فلينقلب عن بقرات النقم فهذا اليوم يوم هم وليلحق بالثني من سن فكان الذين نزلوه ازد شنودة ثم قال لهم ومن كان ذا فاقة وفقر وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مر فكان الذين سكنوه خزاعة ثم قال لهم من كان منكم يريد الخمر والخمير والأمر والتأمير الديباج والحرير فليلحق ببصري والحضير وهي من أرض الشأم فكان الذين سكنوه غسان ثم قال لهم ومن كان منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان فكان الذين نزلوه ازد عمان ثم قال ومن كان يريد الراسخات في الوحل والمطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكان الذين سكنوها الأوس والخزرج...

وأما الاستاذ الفاضل الخضري بك فيرجح الرأي الأخير لسببين

(١) لأن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جدا أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملا خصوصا أنه سائر إلى بلد لم يخبره

(٢) وردت هذه القصة في سورة سبأ على هذا النحو " لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل " فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها...

والتسليم بإحدى النظريتين المفروضتين في سبب خروج بني الازد من اليمن لا يجدينا نفعا في المعضلة الجوهرية وهي تعيين زمن حدوث سيل العرم

فالمراجع العربية لا تأتينا بشئ قليل أو كثير عن زمن وقوع هذه الحادثة الطبيعية المهمة في بلاد اليمن وكان الرأي السائد عند المستشرقين أن سيل العرم حدث في عصر قديم في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد وكانت هناك طائفة من علماء الافرنج تعتقد أن كل الروايات التي جاءت عن سيل العرم إنما هي خرافات وأباطيل

واستمرت هذه الطائفة مقتنعة برأيها هذا حتى ظهرت بحوث العالم المحقق Glaser في سنة ١٨٩٦ حيث قرر ارتكانا على منقوشات جلبها من أرض اليمن أن السيل قد حدث فعلا ولكن لم يحدث في مدة واحدة بل تكررت نوائبه مرات عديدة أما سببه فلا يرجع إلى الطبيعة من حدوث أمطار غزيرة في مرات متوالية فحسب بل كان نتيجة إهمال شديد لهذا السد العظيم نشأ عن فتن داخلية بين الاقيال من جهة وإغارات متوالية من الخارج من جهة أخرى ولما تطاولت الأزمات على السد مع هذا الإهمال الشديد تصدعت جوانبه شيئا فشيئا ووهت أركانه قليلا قليلا

فلما حدث سيل العرم الأول في سنة ٤٤٧ ب. م الذي استمر إلى سنة ٤٥٠ تنبه القوم إلى الخطر المحدق بالسد فاهتموا بأمره وأصلحوا من شأنه ولكن لم تعد له منعته القديمة فلم يحتمل السيول المتواردة زمنا طويلا وانكسر ثانيا سنة ٥٣٢ب.م...

بعد هذه التحقيقات الجليلة زال الشك من النفوس في صحة روايات سيل العرم وانمحى كل ريب في حدوثه ومال بعض المستشرقين إلى الجزم بأن نزوح البطون الأزدية حدث بعد سيل العرم

ولكن من المتعذر على الباحث الذي يحمل في يده مصباح عقله أن يقتنع بأن جميع البطون الأزدية هاجرت إلى شمال الجزيرة بسبب واحد هو سيل العرم بل دائما يرى أنه من المحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى اجتمعت مع سيل العرم أو انفردت دونه واضطر بعض هذه البطون إلى ترك وطنها والهجرة إلى الأرجاء النائية عنه

على أنه يخيل إلى أن المؤرخين أسرفوا في التكبير من شأن سد مأرب وهو لعارفي النتائج التي ترتبت على انكساره مبالغة كبيرة إذ كان هذا السد فيما نعلمه من أبحاث ياقوت في معجم البلدان قديما ومن مجهودات قريحة جلازر Glaser حديثا يسقي ربوة من الأرض لم تكن مسكنا لكل بطون الأزد

ويرجح رأينا هذا ما نجده في جميع الروايات التي تضمنت حوادثه وأخباره من الغموض والإبهام والنقص الظاهر في البيان والتفصيل مع أنه حدث حوالي قرن واحد

قبل الإسلام وقد تراكمت بشأنه القصص والأساطير حتى صارت عرضة لأن يشك العلماء في صحتها جميعا ولم يرجعوا عن شكهم إلا بعد أن ظهرت أبحاث العالم جلازر **Glaser**

وإذا كان هذا شأن حادثة وقعت قبل الإسلام بقرن واحد فماذا يكون شأن الحوادث التي وقعت قبل سد مأرب بنحو خمسة قرون أو أكثر ؟..

وهل يمكننا أن نعول على أخبارها التي ذكرت في السيرة وفي الطبري وفي الواقدي ونستنتج منها نتائج ننظم بها أبحاثنا في تاريخ الجاهلية ؟... من المتعذر علينا إذا أن نعين الزمن الذي وصلت فيه الأوس والخزرج إلى جهات يثرب فلنكتف بما قاله القدماء من أنهما من أزد اليمن وأنه قد وجدت هناك بطون من اليهود قبل وصولهما إلى يثرب

يقول لنا صاحب الأغاني " فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزلوا في حرار ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى عفاء من أرض لا ساكن فيه فنزلوا به ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها فكانوا مع أهلها فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع وليس للرجل منهم إلا الأغداق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات والأموال لليهود فلبث الأوس بذلك حينا...

وأقام اليهود والعرب مدة طويلة يسود بينهم الوئام والوفاق دون أن يحدث ما يكدر أو يفرق بينهم، فكانت السلطة في أيدي اليهود ومواليهم من البطون العربية وكانت الأوس والخزرج تشتغل في الدوائر الزراعية اليهودية ومنهم من كانوا يشتركون مع اليهود في قوافلهم التجارية

ويحدثنا السمهودي عن حالة اليهود والأزد في دور سيادة الوئام والوفاق بينهم فيقول :.... وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدي اليهود والعدد والقوة معهم فمكثوا ما شاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جوارا وحلفا يأمن به بعضهم من

بعض ويمتنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا ولم يزالوا كذلك زمانا طويلا وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد وخافت قريظة والنضير أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف... فأقاموا خائفين أن تجليهم اليهود حتى نجم منهم مالك بن العجلان....

ودار الدهر دورته وظهرت الفتن والعداوات بين اليهود والأوس والخزرج غير أن المصادر العربية لم توافنا بالأسباب الكافية لهذا التغيير وإليك ما يقوله السمهودي : وكانت لا تهدى عروس الحيين حتى تدخل على الفيطون ملك اليهود فيكون هو الذي يفتضها فتزوجت مالك رجلا من قومها فبينما مالك في النادي إذ خرجت أخته فضلاء فنظر إليها أهل المجلس فشق على مالك فدخل وعنفها فقالت ما يصنع بي غدا أعظم أهدى إلي غير زوجي فلما أمسى اشتمل على السيف ودخل متنكرا مع النساء وقتل الفيطون وانصرف لدار قومه...

ويؤخذ من هذه القصة الملفقة أن السمهودي وأمثاله لم يكن عندهم إلمام كاف بحياة العرب في الجاهلية بل كانوا يعتبرونهم متوحشين همجيين لا يعرفون من النظم الاجتماعية شيئا ولا يفهمون من الآداب قليلا ولا كثير ولا ينقادون إلا لما يدعو إليه الخرق والسفاهة .

ولا شك أن قولا كهذا ليس إلا طعنا فاحشا في قبائل العرب في الجاهلية وانكارا شنيعا لما هو معروف عنهم من الانفة والغيرة وإباء الضيم والشجاعة والبسالة إلى حد التضحية بكل شئ في سبيل العرض وحفظ الشرف والكرامة.

ومن جهة أخرى فمثل هذا القول لا يمكن أن يكون له نصيب من الصحة لأن يهود الحجاز إنما كانوا أصحاب دين سماوي يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وليس من المعقول أن ملكا يهوديا يرتكب جريمة منكرة كهذه تناقض روح التوراة وتخالف الإيمان بآله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وانكارا شديدا من شعبه وأبناء جلدته

على أن اختلاق هذه القصة يظهر جليا متى علمنا أنه لم يوجد ملوك من اليهود في يثرب

ونرجح أن الباعث على اختلاق هذه القصة وتلفيقها إنما هو محاولة إخفاء الحقيقة في حادثة غدر ابن العجلان بجيرانه وسفكه لدماء الأبرار منهم كما سيأتي تفصيل ذلك

ومن الغريب أن قصة كهذه تماما يقصها الطبري عن طسم وجديس وذلك يدل على أنها من الخرافات الشائعة عند أمم الشرق في قصصهم وتوريخهم

ولم يأت ابن هشام والواقدي وصاحب الأغاني بقصة الفيطون بل حدثنا الأخير بخبر يبعثنا على التأمل والبحث في عوامل التغيير الذي طرأ فجأة على ما كان بين اليهود والبطون العربية من المودة والوئام فقال " إن مالك بن العجلان رحل إلى أبي جبيلة الغاني وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له أبو جبيلة والله ما نزل قوم منا بلدا إلا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضي إلى قومه وقال له اعلمهم أني سائر إليهم فرجع مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبي جبيلة ثم قال لليهود إن الملك يريد زيارتكم فأعدوا نزلا فأعدون وأقبل أو جبيلة سائرا من الشام في جمع كثيف حتى قدم المدينة فنزل بذي حُرُض ثم أرسل إلى الأوس والخزرج فذكر لهم الذي قدم له وأجمع أن يمكر باليهود حتى يقتل رؤساءهم وأشرافهم وخشي إن لم يمكر بهم أن يتحصنوا في آطامهم فيمتنعوا منه حتى يطول حصاره وإياهم فأمر ببناء حائر واسع فبنى ثم أرسل إلى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق وجه من وجوه القوم إلا أتاه وجعل الرجل يأتي معه بخاصته وحشمه رجاء أن يحبوهم فلما اجتمعوا ببابه أمر رجالا من جنده أن يدخلوا الحائر الذي بني ثم يقتلوا كل من يدخل عليهم من اليهود ثم أمر حجابه أن يأذنوا لهم في الحائر ويدخلوهم رجلا رجلا فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ويقتلهم الجند الذين في الحائر حتى أتوا على آخرهم...

وقد أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم فقال مالك بن العجلان والله ما أثخنا اليهود غلبة كما نريد فهل لكم أن أصنع لهم طعاما ثم أرسل في مائة من أشراف من بقي من اليهود فإذا جاءوني فاقتلوهم جميعا فقالوا نفعل فلما جاءهم رسول مالك قالوا والله لا نأتيهم أبدا وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل فقال لهم مالك إن ذلك كان على غير هوى منا وإنما أردنا أن نمحوه وتعلموا ما لكم عندنا فأجابوه فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك بن العجلان فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلا ثم إن رجلا منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتا فرجع وحذر أصحابه الذين بقوا فلم يأت منهم أحد... وصورت اليهود مالكا في بيعهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلما دخلوها.. فلما قتل مالك من اليهود من قتل ذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفا شديدا وجعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشئ يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيقول إنما نحن جيرانكم ومواليكم فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم....

وقد يكون من المتعذران يقبل المؤرخ هذه القصة على علاتها إذ لا شك في أن اليهود كانوا يحترسون من عمال ملوك الروم كل الاحتراس وكان المعروف فوق ذلك عن يهود الحجاز أنهم على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وأنهم ذوو قوة وبطش فلو أن أمرا كهذا وقع فعلا لأمكنهم أن يحاربوا الأوس والخزرج ويضموا إلى جانبهم في هذه الحرب جميع البطون العربية المجاورة لهم والتي لم تكن تضمر لليهود شرا

على أن أبا جبيلة هذا الذي يقول صاحب الأغاني أنه كان ملكا لم يكن من سلالة ملوك غسان الذين كانوا من بني جفنة ولم يتول عرش غسان من غير بني جفنة إلا أبو جبيلة والحارث الأعرج اللذان يذكر ابن خلدون في موضع من كتابه ان الروم ملكوهما عرش الشام وإن كان يذكر باسم أبي سعد أن الأعرج لم يكن ملكا وإنما كان قائدا ولم يذكر أبا جبيلة البتة

وعلى فرض أن أبا جبيلة والحارث ب الأعرج توليا العرش حقا فلسنا نعلم ما

هي الأسباب التي حملت قياصرة الروم على تولية ملكين من غير سلالة آل جفنة ثم ارجاع العرش إلى هذه الأسرة ثانيا لأن آخر ملوك غسان كان من بني جفنة وهو جبلة بن الأيهم الذي أسلم بعد أن فتح المسلمون الشام ثم ندم ورجع إلى دين آبائه ودخل إلى بلاد الروم

من أجل هذا نرجح أن أبا جبيلة لم يكن من ملوك غسان ولكن إذا صحت الرواية عن حادثته مع يهود يثرب فمن المحتمل أنه كان قائدا ذهب بايعاز من سيده لمنازلة اليهود ويحتمل أيضا من ناحية أخرى أن تكون الأوس والخزرج قد أرادت أن تعقد حلفا مع بعض قبائل الشمال لأن الحلف التي عقدت بينهم وبين اليهود لم تعد حائزة كل رضاهم بعد أن رسخت أقدامهم في البلاد وبعد أن اطمأنوا إليها وانبعثت في نفوسهم المطامع الكبيرة والآمال الواسعة

نعم إن الحلف كانت في مصلحتهم أول الأمر لأنهم لم يكونوا يطلبون إلا أن يعيشوا فلم يكن يسوؤهم أن تبقى الدوائر الزراعية والحركة التجارية في أيدي اليهود وحدهم وأن يكونوا هم معهم كعمال ومساعدين أما الآن فقد امتدت أنظارهم إلى أكثر من هذا

ولم يكن أمامهم من سبيل لتحقيق هذه الآمال والمطامع إلا أن يتخلصوا من حلف اليهود ولم يكن سبيل التخلص من هذه الحلف ممكنا إلا إذا اعتمدوا على حلف أخرى يضمنون بها لأنفسهم النفوذ إذا ثارت الثائرة بينهم وبين اليهود

وقد رأوا الفرصة سانحة لعقد محالفة مع ملوك غسان الذين كانوا يقودون حركة المنافسة الشديدة والنضال العنيف الموجه من النصرانية ضد اليهودية وبطبيعة الحال كان ملوك غسان يرغبون في هذه المحاتقة مع الأوس والخزرج بل ويسعون إليها ليتمكنوا بها من القضاء على اليهودية في بلاد الحجاز

وعلى كل حال فقد وجدت علاقات حسنة بين الطرفين كما يؤخذ من قصيدة المدح التي قالها حسان بن ثابت في ملوك بني غسان والتي يقول فيها :

لله در عاصـــــــــبة نادمـــــــــتهم	يومـــــا بجلــــق في الزمـــــان الأول
أولاد جفنـــة حـــول قـــبر أبـــيهم	قـــبر ابـــن ماريـــة الكـــريم المفضـــل
يســـقون مـــن ورد الـــبريص علـــيهم	بـــردي يصـــفق بالرحيـــق السلســـل
يغشـــون حـــتى مـــا تهـــر كلابهـــم	لا يســـألون عـــن الســـواد المقبـــل
بـــيض الوجـــوه كريمـــة احســـابهم	شـــم الأنـــوف مـــن الطـــراز الأول

ولكن هذا كله لا يثبت صحة ما روى عن أبي جبيلة إذ من الممكن جدا أن تكون العلاقات الحسنة بمثابة العهد من جانب ملوك غسان بعد النعرض لتجار البطون اليثربية الذين كانوا يجولون في أنحاء سورية

ومن الممكن أيضا أن تكون هناك علاقات كهذه بين اليهود وبين بني غسان نظرا للمصالح التجارية بالعظيمة التي كانت لليهود في بلاد غسان

وهناك أمر آخر يزيدنا شكا في صحة قصة أبي جبيلة ذلك أننا لا نجد بينها وبين يوم بعاث الذي جاء بعدها أية صلة أو ارتباط بل على العكس من ذلك نستنتج اعتمادا على الأخبار المفصلة التي وصلتنا عن يوم بعاث أن اليهود كانوا متمتعين بجميع حقوقهم السياسية والاجتماعية وكانت مزارعهم وآطامهم وأموالهم كاملة غير منقوصة....

ويقرر المؤرخ **Graetz** ان بطون الأوس والخزرج لم تصارح اليهود بالعداوة والمعصية إلا بعد النكبة التي حلت باليهود في اليمن إذ لا يتصور أن يضطهد اليهود في الحجاز في العصر الذي كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ويتعصبون لدينهم ويناهضون كل من يناهضهم أو يعتدي عليهم

ويؤيد قول هذا العالم ما ذكره بعض مؤرخي العرب من أن الحجاز الشمالية كانت في شبه تبعية لليمن في عصر وجود حمير المتهودة وأن واحدا من الأسرة المالكة في اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة في شمال الحجاز

وقد بقيت البطون العربية عصورا طويلة على موالاة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شئ يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل إلى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكايد وتحرض عليهم زعماء الأوس والخزرج ليفتكوا بهم

والظاهر أن دولة بني غسان لم تفعل هذا إلا بايعاز من الدولة الرومانية الشرقية التي أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة في كفاحها ضد اليهود في اليمن

وليس غريبا على هذه الدولة أن يحرص عمالها من ملوك غسان على أن يثيروا الفتن والدسائس ضد يهود الحجاز فسياستها هذه واضحة كل الوضوح في الجزيرة العربية أثناء القرن الخامس والسادس ب. م. وأمامنا قصة في كتاب السمهودي تستحق العناية لفهم السياسة الدينية عند زعماء النصارى في الجزيرة العربية وهي أن مالك بن العجلان قد ذهب بعد قتاله للفيطون إلى تبع الأصغر فشكا إليه ما كان من أمر يهود يثرب فعاهده تبع ألا يقرب امرأة ولا يمس طيبا ولا يشرب خمرا حتى يسير إلى المدينة ويذل اليهود..

ويعلق العالم **Wűstenfeld** الذي طبع كتاب السمهودي على رواية تبع الأصغر بقوله أنه كان من اقيال الحبشة المتنصرين في اليمن وأنه ذهب لمحاربة يهود الحجاز مساعدة لأبي جبيلة الغساني

وأني أنقل رواية السمهودي عن تبع الأصغر بتحفظ شديد دون أن أميل إلى الاعتقاد بصحتها وإنما نقلتها لأن توافق أقوال المستشرقين عن الخطة السياسية التي اتبعتها الدولة الرومانية الشرقية في الأقاليم العربية

ويعتقد العالم **Welllausen** ان الكفاح بين النصرانية واليهودية في بلاد الحجاز كان عنيفا جدا وأن اغارات الدولة الفارسية على حدود البلاد الرومانية وقفت الملحمة الفاصلة لزمن ما ولولا ظهور الإسلام لأصبحت بلاد الجزيرة من الوجهة الدينية منقسمة باجمعها إلى قسمين يهودية ونصرانية

لم يصل إلينا من أخبار اليهود في بلاد الحجاز بعد أن خمدت نار الفتنة بينهم

وبين بطون الأوس الخزرج إلا ما يعرف بيوم بعاث

ويحدثنا صاحب الأغاني عن هذا اليوم العبوس بقوله : كانت الأوس قد أسندوا أمرهم في يوم بعاث إلى أبي قيس بن الاسلت الوائلي فقام في حربهم وآثرها على كل أمر حتى شحب وتغير ولبث أشهرا لا يقرب امرأة..... وكانت الأوس قد استعانت ببني قريظة والنضير في حروبهم التي كانت بينهم وبلغ ذلك الخزرج فبعثت إليهم أن الأوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب فإن ظفرنا بكم فذاك ما تكرهون وإن ظفرتم لم تتم عن الطلب أبدا فتصيروا إلى ما تكرهون ويشغلكم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا فلما سمعوا ذلك علموا أنه الحق فأرسلوا إلى الخزرج أنه قد كان الذي بلغكم والتمست الأوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبدا فقالت لهم الخزرج فإن كان ذلك كذلك فابعثوا إلينا برهائن تكون في أيدينا فبعثوا إليهم أربعين غلاما منهم ففرقهم الخزرج في دورهم فمكثوا بذلك مدة ثم ان عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه بياضة أن عامرا أنزلكم منزل سوء بين سبخة ومفازة وأنه والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل ثم راسلهم إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها واما ان تقتل رهنكم فهموا أن يخرجوا من ديارهم فقال لهم كعب بن أسد القرظي يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الرهن والله ما هي إلا ليلة يصيب فيها أحد امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن فاجتمع رأيهم على ذلك بأرسلوا إلى عمرو بأن لا نسلم لكم دورنا وانظروا الذي عاهدتمونا عليه في رهننا فقوموا لنا به فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوهم وأبى عبدالله بن أبي وكان سيدا حليما وقال هذا عقوق ومأثم وبغى فلست معينا عليه ولا أحد من قومي أطاعني وكان عنده في الرهن سليمان بن أسد القرظي وهو جد مُحَمَّد بن كعب القرظي فخلى عنه وأطلق ناس من الخزرج نفرا فلحقوا بأهليهم فناوشت الأوس والخزرج يوم قتل الرهن مناوشة ضئيلة

واجتمعت قريظة والنضير إلى كعب بن أسد أخي بني عمرو بن قريظة ثم تآمروا

أن يعينوا الأوس على الخزرج فبعث إلى الأوس بذلك ثم أجمعوا أن ينزل كل أهل بيت من النبيت على بيت من قريظة والنضير فنزلوا معهم في دورهم وأرسلوا إلى النبيت يأمروهم بأتيانهم وتعاهدوا ألا يسلموهم أبدا وأن يقاتلوا معهم حتى لا يبقى منهم أحد فجاءتهم النبيت فتزلوا مع قريظة والنضير ثم أرسلوا إلى سائر الأوس في الحرب والقيام معهم على الخروج فأجابوهم إلى ذلك فاجتمع الملأ منهم واستحكم أمرهم وجدوا في حربهم ودخلت بينهم قبائل من أهل المدينة منهم بنو ثعلبة وهم من غسان وبنو زعوراء وهم من غسان فلما سمعت بذلك الخزرج اجتمعوا ثم خرجوا وفيهم عمرو بن النعمان البياضي وعمرو بن الجموح السلمي حتى جاءوا عبدالله بن أبي وقالوا له قد كان الذي بلغك من أمر الأوس وأمر قريظة والنضير واجتماعهم على حربنا وأنا نرى أن نقاتلهم فإن هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد

فلما فرغوا من مقالتهم قام عبدالله بن أبي خطيبا وقال ان هذا بغى منكم على قومكم وعقوق والله ما أحب أن رجلا من جراد لقيناهم وقد بلغني أنهم يقولون هؤلاء قومنا منعونا الحياة فيمنعوننا الموت والله إني أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا عامتهم وإني لأخاف أن قاتلوكم ان ينصروا عليكم لبغيكم عليهم فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم فإذا ولو فخلوا عنهم فإذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا عنكم فقال له عمرو بن النعمان انتفخ والله سحرك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الأوس قريظة والنضير فقال عبدالله والله لاحضرتكم أبدا ولا أحد أطاعني أبدا ولكأني انظر إليك قتيلا تحملك أربعة في عباء وتابع عبدالله بن أبي رجال من الخزرج منهم عمرو بن الجموح الحرامي واجتمع كلام الخزرج على أن رأسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضي وولوه أمر حربهم

ولبثت الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ويجمع بعضهم لبعض ويرسلون إلى حلفائهم من قبائل العرب فأرسلت الخزرج إلى جهينة واشجع فكان الذي ذهب إلى اشجع ثابت بن قيس بن شماس فأجابوه وأقبلوا إليهم وأقبلت جهينة إليهم أيضا وأرسلت الأوس إلى مزينة وذهب حضير الكتائب الأشهلى إلى أبي قيس

فقام حضير فاعتمد قوسه فحرضهم وأمرهم بالجد في حربهم وذكر ما صنعت بهم الخزرج من إخراج النبيت وإذلال من تخلف من سائر الأوس في كلام كثير...

فأجابته أوس الله بالذي يجب من النصرة والمؤازرة والجسد في الحرب وأما الأوس فاجتمعت يومئذ إلى حضير بموضع يقال له الحياة فأجابوا الرأي فقالت الأوس إن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحدا ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم فقال حضير يا معشر الأوس ما سمتم الأوس إلا لأنكم تؤسون الأمور الواسعة

ولما اجتمعوا بالحياة طرحوا بين أيديهم تمرا وجعلوا يأكلون وحضير الكتائب جالس وعليه بردة له قد اشتمل بها الصماء ما يأكل معهم ولا يدنو إلى التمر غضبا وحنقا فقال يا قوم اعقدوا لأبي قيس بن الأسلت فقال لهم أبو قيس لا أقبل ذلك فإني لم أرأس على قوم قط إلا هزموا وتشاءموا برياستي وجعلوا ينظرون إلى حضير واعتزاله أكلهم واشتغاله بما هم فيه من أمر الحرب وقد بدت خصياه من تحت البرد فإذا رأى منهم ما يكره من الفتور والتخاذل تقلصتا غيظا وغضبا وإذا رأى منهم يا يحب من الجد والتشمير في الحرب عادتا لحالهما وأجابت إلى ذلك أوس مناه وجدوا في المؤازرة والمظاهر وقدمت مزينة على الأوس فانطلق حضير وأبو عامر الراهب بن صيفي إلى أبي قيس بن الأسلت فقالوا قد جاءتنا مزينة واجتمع إلينا من أهل يثرب ما لا قبل للخزرج به فما الرأي ان نحن ظهرنا عليهم الانجاز أم البقية فقال أبو قيس بل البقية قال أبو عامر والله لوددت أن مكانهم ثعلبا ضباحا فقال أبو قيس اقتلوهم حتى يقولوا بزا بزا كلمة

كانوا يقولونها إذا غلبوا فتشاجروا في ذلك وأقسم حضير ألا يشرب خمرا أو يظهر ويهدم مزاحما أطم عبدالله بن أبي فلبثوا شهرين يعدون ويستعدون ثم التقوا ببعاث وتخلف عن الأوس بنو حارثة بن الحارث فبعثوا إلى الخزرج إنا والله ما نريد قتالكم فبعثوا إليهم أن ابعثوا إلينا برهن منكم يكونون في أيدينا فبعثوا إليهم اثنى عشر رجلا منهم خديج وبعاث من أموال بني قريظة فيها مزرعة يقال لها قوري فلذلك تدعى بعاث الحرب وحشد الحيان فلم يتخلف عنهم إلا من لا ذكر له ولم

يكونوا حشدوا قبل ذلك في يوم التقوا فيه فلما رأت الأوس الخزرج أعظموهم وقالوا لحضير يا أبا أسيد لو حاجزت القوم وبعثت إلى من تخلف من حلفائك من مزينة فطرح قوسا كانت في يده ثم قال انظروا مزينة وقد نظر إلى القوم ونظرت إليهم الموت قبل ذلك. ثم حمل وحملوا فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الأوس حين وجدوا مس السلاح فولوا مصعدين في حرة قورى نحو العريض وذلك وجه طريق نجد فنزل حضير وصاحت بهم الخزرج أين الفرار إلا أن نجدا سنت أي مجدب يعيرونهم فلما سمع حضير طعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح واعقراه والله لا أريم حتى أقتل فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا فتقطعت عليه الأوس وقام على رأسه غلامان من بني عبد الأشهل فقاتلا حتى قتلا وأقبل سهم حتى أصاب عمرو بن النعمان رأس الخزرج فقتله لا يدري من رمى به إلا أن بني قريظة تزعم أنه سهم رجل يقال له أبو لبابة فقتله فبينا عبدالله ابن أبي يتردد على بغلة له قريبا من بعات يتجسس أخبار القوم إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان ميتا في عباءة له يحمله أربعة إلى داره فلما رآه عبدالله بن أبي قال من هذا قالوا عمرو بن النعمان قال ذق وبال العقوق وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلام وصاح صائح يا معشر الأوس أسجحوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فتناهت الأوس وكفت عن سلبهم بعد إثخان فيهم وسلبتهم قريظة والنضير وجعلت الأوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها فخرج سعد بن معاذ الأشهلي حتى وقف على باب بني سلمة وأجارهم وأموالهم جزاء لهم بيوم الرعل وكان للخزرج على الأوس يوم يقال له يوم مفلس ومضرس وكان سعد ابن معاذ حمل يومئذ جريحا إلى عمرو بن الجموح فمن عليه وأجاره وأخاه يوم رعل وهو على الأوس من القطع والحرق فكافأه سعد بمثل ذلك في يوم بعاث وأقسم كعب بن أسد القرظي ليذلن عبدالله بن أبي وليحلقن رأسه تحت مزاحم فناداه كعب انزل يا عدو الله أنشدك الله وما خذلت عنكم فسأل عما قال فوجده حقا فرجع عنه واجتمعت الأوس على أن تهدم مزاحما أطم عبدالله بن أبي وحلف حضير ليهدمنه فكلم فيه فأمرهم أن يريثوا فيه كوة وأفلت يومئذ الزبير بن

اياس بن باطا ثابت بن قيس شماس أخا بني الحرث وهي النعمة التي كافأه بها ثابت في الإسلام يوم بني قريظة

وخرج حضير الكتائب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الأسلت بعد الهزيمة فقال له حضير يا أبا قيس إن رأيت أن نأتي الخزرج قصرا قصرا ودارا دارا نقتل ونهدم حتى لا يبقى منهم أحد فقال أبو قيس والله لا نفعل ذلك فغضب حضير وقال ما سميتم الأوس إلا لأنكم تؤسون الأمر أوسا ولو ظفرت منا الخزرج بمثلها ما أقالوناها ثم انصرف إلى الأوس فأمرهم بالرجوع إلى ديارهم وكان حضير جرح يومئذ جروحا شديدة ثم مات من الجراح التي كانت به

وكان يهودي أعمى من بني قريظة يومئذ في أطم من آطامهم فقال لابنة له أشرفي على الأطم فانظري ما فعل القوم فأشرفت وقالت أسمع الصوت قد ارتفع في أعلى قوري وأسمع قائلا يقول اضربوا يا آل الخزرج فقال الدولة إذا على الأوس لا خير في البقاء ثم قال ماذا تسمعين قالت أسمه رجالا يقولون يا آل الأوس ورجالا يقولون يا آل الخزرج قال الآن حمى القتال ثم لبث ساعة ثم قال أشرفي فاسمعي فأشرفت فقالت أسمع قوما يقولون نحن بنو صخرة أصحاب الرعل. قال تلك بنو عبدالأشهل ظفرت... ثم وثب فرحا نحو باب الأطم فضرب رأسه بحاق بابه وكان من حجارة فسقط فمات

وقال خفاف بن ندبة يرثي حضير الكاتب وكان نديمه وصديقه :

لـو أن المنـايا حـدن عـن ذي مهابـة ... لهــبن حضــيرا يــوم أغلــق داقمــا

أطــاف بــه حــتى إذا الليــل جنــه ... تبـــوأ منـــه منـــزلا متناعمـــا..

* * *

أتاني حـــــــديث فكذبتـــــــه ... وقيـــــل خليلـــــك في المـــــرمس

فيــاعين أبكــى حضــير النــدى ... حضـــير الكتائـــب المجلـــس

ويــــوم شـــديد أوار الحديــــد ... تقطـــع منـــه عـــرى الأنفـــس

صـــليت بـــه وعليـــك الحديـــد مـــا بـــين ســـلع إلى الأعـــرس
فـــأودي بنفســـك يـــوم الـــوغي وتقـــــي ثيابـــــك لم تـــــدنس...

.... اهـ

* * *

ولما كانت حوادث هذا اليوم قد جرت قبيل ظهور الإسلام بخمس سنوات قبل الهجرة وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين جالوا في ميدان الوغي قد أدركوا الإسلام حتى كان لبعضهم أثر ظاهر في حوادث المدينة بعد هجرة النبي مُحَّمد إليها فلا شك أنه يوم حقيقي وأن أغلب ما نقلنا من أخباره صحيح

وللبخاري حديث يدل على الوقع العظيم الذي كان ليوم بعاث في نفوس أهل يثرب " قالت عائشة دخل على رسول الله وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فانتهرني وقال مزمارة الشيطان عند رسول الله

وقد ظل اليهود بعد هذا اليوم محتفظين بمكانتهم بين القبائل العربية حتى ان الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حسابا كبيرا وكانت كل منهما تجتهد في أن تميلهم إليها ليساعدوها في كفاحها ضد الأخرى

وكذلك تبين لنا من يوم بعاث أن اليهود كانوا أهل نضال وكفاح وأنهم كانوا كالأعراب في قسوتهم وغلظتهم المعروفتين عنهم في الجاهلية حتى ان بني النضير وقريظة أثخنوا في بني قينقاع ومزقوا شملهم بسبب انضمامهم إلى بني الخزرج ليكونوا عونا لهم على أبناء جلدتهم

وقد أظهر الربيع بن أبي الحقيق استياءه الشديد من تلك المعاملة الغليظة لبني قينقاع فذكر معايب بني النضير وقريظة وكان الربيع من شعراء اليهود من بين قريظة وكان أحد الرؤساء في يوم حرب بعاث وكان حليفا للخزرج هو وقومه فقال :

ســـئمت وأمســـيت رهـــن الفـــرا ش مـــن جـــرم قـــومي ومـــن مغـــرم

ومـــن ســـفه الـــرأي بعـــد النهـــي | وعيـــــــب الرشـــــــاد ولم يفهـــــــم
فلـــو أن قـــومي أطـــاعوا الحليـــ | م لم ينعـــــــــــدوا ولم يظلـــــــــــم
ولكـــــن قـــــومي أطـــاعو الغـــوا | ة حـــــتى تعكـــــس أهـــــل الـــــدم
فـــأودي الســـفيه بـــرأي الحليـــ | م وانتشـــــــر الأمـــــــر لم يـــــــبرم...

وكان من نتائج يوم بعاث أن ضعف روح العدوان والحقد في نفوس البطون البريئة حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال

وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتا حاميا على نار العداوة الكامنة في القلوب ليزيد في ضرامها ويعظم من أوارها سعى كثير من الزعماء وذوي النفوذ من الطرفين لكف يده حتى لا تسل السيوف من أغمادها

وعلى العموم فإن يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب قاطبة وأدخل فيها الميل إلى الاتحاد حتى أرادت فيما يقال أن تملك عليها ملكا من بني الخزرج كما يحدثنا ابن هشام " ان قوم عبدالله بن أبي قد نظموا له الخزر ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ثم جاء رسول الله إلى المدينة وانصرف القوم عن عبدالله ورأى أن الرسول قد استلبه ملكا فلما أن رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن وكان لا يختلف عليه في شرفه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين...

فكأن قلوب بني يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها قد سئمت العداوة وكرهت حالة الجفاء والخشونة وشعرت بالحاجة إلى من يخرجهم منها ويوحه عنايتهم إلى ما هو أكثر خيرا وأعظم نفعا

الباب الرابع

أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية في بلاد الجماز قبيل ظهور الإسلام

مسايرة النمو الأدبي والاجتماعي للتقلبات السياسية – بسط نفوذ الدين اليهودي في الحجاز – الديانة الاسرائيلية لا تميل إلى إرغام الأمم على اعشاقها – العوامل التي حالت دون انتشار اليهودية في الحجاز – قصص بن هشام في مبلغ تأثير اليهود في عقلية العرب – طعن بعض المستشرقين في صحة وجود صلة قرابة قديمة بين العرب واليهود – رد هذا الطعن بالأدلة التاريخية وأبحاث بعض المستشرقين – عادة الختان عند العرب واليهود وهل أخذنا العرب من اليهود ؟ – التعبير (ملة ابراهيم حنيفا) وعادة الختان – الحنيفية في بلاد الحجاز – الجدل بين المستشرقين في هذا الموضوع – زيد بن عمرو بن نفيل والحنيفية – النسأة عند العرب واليهود – الاصطلاحات الوثنية عند العرب وعلاقتها باللغة العبرية – ضعف تأثير الديانة المسيحية في قلوب أهل الحجاز – حالة اليهود الاجتماعية والدينية بين العرب في الجاهلية – الحالة عند قبائل الحجاز قبيل ظهور الإسلام – يوم الفجار ونتائجه – النهضة الفكرية في بلاد الحجاز قبيل الإسلام – قس بن ساعدة – أمية بن أبي الصلت – استعداد القلوب العربية لقبول ديانة سماوية جديدة

إذا أنعمنا النظر في التاريخ العام نجد النمو الأدبي والتغير الفكري في أمة من الأمم يمتد ويسمو إلى الدرجات الرفيعة مع امتداد النمو السياسي وازدياد الرقي إلى ذري المجد بقوة السيف والبطش كما نراه يسقط شيئا فشيئا ويتدهور تدريجيا كلما تدهورت القوة المادية في تلك الأمة وضعف سلطانها

وتكاد تكون هذه الظاهرة عامة وشاملة لكل الأمم والشعوب ولكنا لا نجدها حين نبحث عنها في يهود الجزيرة العربية إذ بعد أن انتصر الحبشيون على ملوك حمير

المتهودة وبعد أن أظهر أبو جبيلة الأوس والخزرج على يهود يثرب – إذا فرضنا صحة هذه الرواية – بقي سلطانهم الفكري بوجه عام ونفوذهم الديني بوجه خاص قويين سليمين لم تنل منهما قوة أعدائهم إلا قليلا

ولاشك أنه كان في مقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني على العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها وإن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظورة على اليهود

ولسنا نعرف في تاريخ اليهود أنهم أرغموا بقوة السيف أمة من الأمم على اعتناق اليهودية إذا استثنينا حادثة واحدة ارغم فيها الملك اليهودي يوحنان هوركانوس طوائف بني أدوم على اعتناق اليهودية صاغرين بعد أن استولى على بلادهم عنوة ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن اليهود كانوا يعتبرون بني أدوم إخوة لهم في الجنسية إذ لم تكن هناك بينهم فروق ظاهرة في العقلية والتقاليد فلعلهم أرادوا بارغامهم إياهم على اعتناق اليهودية أن يزيلوا الفارق الديني أيضا...

وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية في الحجاز : فاليهودية كما نفهمها هي خلاصة القانون التلمودي بعقائده وتقاليده وطقوسه وهذا القانون الذي نشا في بيئة معينة وفي مدة قرون معينة والذي استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التي طرأت على اليهود مع التغير الاجتماعي والرقي الروحاني الذي طبع العقلية اليهودية بطابع جديد لم يكن يعرف في العصور الاسرائيلية القديمة وقد نجم عن ذلك ان الذين أرادوا أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودي وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية ولاشك أن هذا كا من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور النصرانية فإن طوائف اليونان والسريان المجاورة لفلسطين قد تأثرت بالدين الاسرائيلي وارتاحت لتعاليم التوراة فاعتنقت العقائد الجوهرية وآمنت بالمبادئ الأساسية ورفضت ما لا

يناسب روحها القومي ولا يتفق مع تقاليدها القديمة

كذلك وجدت هذه النفسية في الجزيرة العربية إذ تأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية وأخذوا يخضعون لبعض الأصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر فلم ترض منهم اليهودية ذلك ولم تقربهم إلى الله بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام لأنهم لم يقبلوا التمسك بالسبت ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود

وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها إلا إذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها دون أن يفضل بعضها على بعض

على أن المسيحيين والمسلمين نحوا هذا النحو مع كل من أراد أن يعتنق المسيحية أو الإسلام إذ لم يرض المسيحيون من شخص أن يعتنق بعض ما جاء في الإنجيل وينكر ما لم يوافق هواه وكذلك رفض المسلمون أن يدخلوا في حظيرة الإسلام من آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر

وهناك أمر آخر عاق انتشار اليهودية بين العرب ذلك أن التوراة والتلمود كلفا الإنسان بتكاليف صعبة وربطاه بتقاليد كثيرة لم يألفها فلم يستطع العربي الذي لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة وعسر على نفسه أن تقبل التقليد باغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهي المطبوعة على حب الاستقلال والحرية

ويقول الاستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار : وهناك أمر آخر له خطر. وهو ان اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار من بين شعوب الأرض. ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم. لهذا لا يقرون بأن الله يختار نبيا غير اسرائيلي. (راجع آية – ١ – وما بعدها من الاصحاح ١٤ تثنية) – اهـ

كنا قد ذكرنا في الفصول الماضية ان بطونا عربية كثيرة سكنت بجوار اليهود في

يثرب وخيبر ووادي القرى ولكن الاختلاط والتأثير بين العرب واليهود لم يقف عند هذا الحد بل انه انتشر في أكثر أقاليم العرب عموما والحجاز خصوصا. كانت مستعمرات اليهود واقعة على طريق القوافل الآتية من الحجاز واليمن قاصدة إلى سورية والعراق وكان تجار العرب يأتون إلى الأسواق اليهودية في شمال الحجاز ليبتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم في الأسواق التي كان العرب يقيمونها في جهات شتى فينتج عن التعاون الاقتصادي والاختلاط الاجتماعي تبادل في الآراء وجدال في الديانات

كان اليهود يفتخرون بدينهم ويقصون على الأعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته وعن خلق الدنيا والجنة والنار والقيامة والبعث والحساب والميزان وكانوا يذكرون معايب الوثنيين ويمزقون أعراض الأصنام جهرا كما يحدثنا ابن هشام إذ يقول " كان سلمة من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بن عبدالأشهل قال فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بني الأشهل وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون ان بعثا كائن بعد الموت فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى ان هذا كائن ان الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ثم يدخلونه إياه فيظنونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدا فقالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة واليمن....

* * *

يوجد عند بعض الباحثين ميل إلى اعتقاد أن اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمردسيسة لفقها اليهود للعرب تزلفا إليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم " ويقول أحد هؤلاء العلماء : "... إن هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة إذ لوحظ

عليهم كثيرا أنهم متى رأوا المصلحة في التودد إلى قوم قالوا لهم أنتم اخواتنا ونحن وأنتم صنوان... ظلوا منذ ذلك العهد إلى ظهور الإسلام وهم يبذلون جهدهم في اشراب العرب عقيدة أنهم جميعا ذرية أب واحد حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب أجهل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق

ولما ظهر النبي مُحَمَّد رأى المصلحة في اقرارها فأقرها وقال للعرب إنما هو يدعوهم إلى ملة ابراهيم...

والمتأمل في هذه النظرية التي يشم منها رائحة الطعن في ديانة سماوية يرى أنها مجردة عن الصحة وليس فيها من الحقيقة التاريخية عين ولا أثر ويؤكد فسادها ما يأتي:

(١) ان اليهود كانوا يقصون على العرب الأقاصيص المذكورة في التوراة والتلمود كما هي دون أن يزيدوا عليها شيئا من عند أنفسهم

(٢) إذا وجد الميل عند بعض المستشرقين إلى انكار وجود الآباء الأقدمين لبني اسرائيل من ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا وجود قبائل بني اسرائيل وقبائل بني اسماعيل لأن التوراة نصت على وجودها في طور سينا والحجاز بما ذكرته من الحوادث التي وقعت بين بطون اسماعيلية وأدومية واسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لإثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طور سينا والحجاز

وقد عثرت على نص في التوراة يؤيد نظريتي في هذا الصدد ولكني مضطر إلى أن أترجم هذا النص ترجمة عربية جديدة لأن تراجم التوراة العربية والافرنجية قد أخطأت في تفسيرها الحقيقي وهذا هو النص العبري :

מחוילה עד שור אשר על פני מצרים באכה אשורה על פני כל אחיו נפל וישכנו (בני־ישמעאל)

ومعناه : ونزلت (بطون بني اسماعيل) مع نشأتها بين أخوتها واستوطنت البلاد من الحولة إلى طريق القوافل بين مصر والعراق

(٣) قرر علماء الافرنج جميعا أن علاقة بطون بني اسرائيل الجنوبية بعرب

الحجاز وطور سينا أقرب منها إلى قبائل بني اسرائيل الشمالية كل هذا يوضح أنه لم تكن ليهود الحجار ضرورة لاختلاق الأباطيل

وأما الاستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار فيقول : لو أن اليهود كانوا في تلك الأزمان المنصرمة يستغلون القرابة يخترعونها لتكون رباطا بينهم وبين قوم يرجون منهم نفعا أو يخشون منهم ضررا أو حيفا لكان الأجدر بتلك القرابة الرومان والفرس أي الأمم التي تعاقب حكمها عليهم في الأزمنة المختلفة. ولكنا لم نر منهم شيئا من ذلك ودعوى أنهم يفعلون ذلك مع الأمم كلما رجوا نفعا أو خافوا حيفا دعوى لا نظن أن من يدعيها يقدر أن يقيم أدنى برهان عليها

وأعجب ما يعجب له السامع لأولئك الطاعنين في اليهود بهذه القرية أن يكون اليهود يخترعون تلك الأسطورة تزلفا لقريش أو العدنانيين في حين أنه ليس ثمة من صلات بين اليهود وقريش تجعل الأولين يرهبون سطوة الآخرين ويرجون خيرهم لبعد الشقة بين مواطن الفريقين ولم يعهد أحد ولم يروا راوفي القديم ولا في الحديث أن اليهود استعانوا قريشا في حرب من حروبهم أو غزوة من غزواتهم معتمدين على صلة القرابة واتحاد الدم أو على صلة أخرى من الصلات التي تكون بين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة

ولو أن اليهود يتجرون بلحمة القرابة النسبية ويستغلونها للمصلحة يجلبونها أو المضرة يدفعونها لكان الأليق بهم والأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج الذين يتاخمونهم ويشاركونهم في المواطن والمرافق ويرتبطون معهم بربط المعاملة والجوار. فكيف يتركون هؤلاء المجاورين لهم يخترعون أسطورة يلفقونها تربطهم بقوم بعيدي الدار لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا

بقي أمر آخر له أهمية في هذا الموضوع : وهو أن أسفار التوراة ترجمت إلى اليونانية في عهد بطليموس فيلادلتوس. وهو ثاني ملك من البطالسة في مصر ويوافق حكمه أوائل القرن الثالث قبل المسيح وفي صلب تلك الترجمة كل النصوص التي

تنص على ارتباط العرب الاسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود وذلك قبل رحيل يهود يثرب إلى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون. فهل كان اليهود يعلمون ما ستحدثه الأيام وأنهم بعد أربعة قرون أو أكثر سيصيرون إلى بلاد العرب ويتخذونها دار مقام لهم. أنهم سوف يحتاجون إلى ربط أنفسهم برابطة النسب مع قوم من العرب لا يخالطونهم في الدار وليس بينهم وبينهم حلف أو جوار فأعدوا ذلك قبل ترجمة التوراة إلى اليونانية وكذبوا تلك الأكذوبة سلفا وقبل الاحتياج إليها بقرون متطاولة. إذا قال أولئك الطاعنون على اليهود : نعم، فليس لدينا ما نجيبهم به سوى قول القائل :

من كان يخلق ما يقو   ل فحيلتي فيه قليلة..... اهـ –

ومهما يكن من الأمر فإن اتصال العرب باليهود قد أدى إلى تغيير جوهري في عقلية المضر والبادية بالحجاز وظهرت هناك نظم جديدة طرأت على شؤونهم الاجتماعية وتسربت الاصطلاحات من العبرية إلى العربية

وإني أشير هنا إلى بعض التغييرات التي يعتقد العلماء أنها ظهرت في الحجاز بعد وصول اليهود إليها في طورهم الثاني...

لا شك في أن عادة الختان لم تسر من اليهود إلى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة في الجزيرة العربية منذ عصور غابرة ويستدل العالم (Wellhausen) بوجود قبائل متوحشة حتى في أفريقيا كانت تألف هذه العادة

ولست أنكر صحة هذا الرأي لأن التوراة توضح لنا أن بني إسرائيل قد جاءوا بالختان من موطنهم الأصلي فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت ذائعة عند قبائل أخرى مجاورة لبني إسرائيل في الصحراء

غير أن هناك اعتبارا آخر لم يمعن العلماء نظرهم في فحصه ربما يرشدنا إلى اكتشاف تأثير اليهود على العرب في عادة الختان

كان الاصطلاح " ملة إبراهيم حنيفا " شائعا عند العرب قبل ظهور الإسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكري العرب لم تكن عبادة الأوثان تعجبهم وكانوا

يرون أن التقرب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له

لا أريد أن أعود إلى أقوال مفسري القرآن في هذه العبارة ولكن أجتهد في أن أصل إلى تفسير جديد لهذا الاصطلاح

يعرف العضو التناسلي بعد ختانه في العبرية باسم ملة (מילה) كما أن له اسما خاصا قبل ختانه وهو غرلة

وبما أن الختان من أصول الدين الاسرائيلي فقد عبر الناموس الديني عن كل من اختتن أنه دخل في ذمة وعهد ابراهيم الخليل להכניסו בבריתו של אברהם אבינו

ومن هنا أطلق اليهود على كل من اختتن التعبير " ملة ابراهيم " وهذا اللفظ يقوله العاذر للطفل عندما يعذره والحاضرون يؤمنون (עונים אמן)

ولكن من حيث أن الختان وحده لا يؤدي إلى الإيمان باليهودية لأن هناك شروطا أخرى لابد من توفرها كإعلان الدخول في الديانة التوحيدية الاسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه فقد أطلق اليهود على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم حنيف חנף غير الصالح أي الختان الغير الوافي بالشروط اليهودية وقد جاء في لسان العرب وكان في الجاهلية يقال من اختتن وحج البيت حنيف... القراء الحنيف من سنته الختان.. الجوهري الحنيف المسلم وقد سمي المستقيم بذلك كما سمي الغراب أعور وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية ويقال اختتن

وفيه أيضا : أبو عمرو الحنيف المائل من خير إلى شر ومن شر إلى خير.

ومن ذلك كله يمكننا أن نقول إن الحنيف في الأصل هو المائل إلى الشر كما هو عند اليهود في لغتهم والعرب قد يطلقون اللفظ على الشئ وضده فأطلقوا الحنيف على المستقيم على ملة إبراهيم استعمالا للفظ في أحد معنييه فيحتمل أن اليهود أطلقوا على العرب التي شاعت عندها عادة الختان هذا اللفظ دون أن توضح لهم معناه ثم شاع استعماله عند العرب حتى في معناه الأصلي

لو اتضحت صحة هذا الرأي لكان فيه برهان قاطع على أن عادة الختان قد سرت إلى العرب من اليهود في الدور الثاني

يجتهد العالم (Wellhausen) في أن يبرهن أن الحنيفية كانت مذهبا نصرانيا ذائع الصيت في بلاد العرب ولكن Leszynsky يعارضه ويقول ان الحنيفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهبا معينا بل كان هناك أشخاص من مفكري العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ودخل بعضهم في اليهودية ودخل بعض آخر في النصرانية وبقي جماعة منهم غير متمسكين بدين من الأديان واستدل على ذلك بقول القرآن ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما فإنه صريح في أن الحنيفية لم تكن واحدا منهما

وقد جاء لبعض الأفراد من الحنيفيين ذكر في سيرة ابن هشام أكتفى بنقل ما يقوله عن واحد منهم " وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وبادأ قومه بعيب ما هم عليه... وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيري ثم يقول اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك ولكني لا أعلمه....

كذلك قرر بعض العلماء من الافرنج أن أمر النسئ نشأ من تأثير اليهود على العرب

يحدثنا ابن هشام بأن " النسأة هم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر

وللعرب في موضوع النسأة ومعناها كلام طويل عريض وأما الافرنج فينكرون وجود تفسير لكلمة نسأة بالعربية ويميلون إلى القول بما كان معروفا عند اليهود من أن

الناسئ (נשיא) أي الرئيس الديني عند اليهود كان يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والصيام ويعلن النتيجة بواسطة وفود إلى الطوائف اليهودية المختلفة

وأضيف إلى ذلك أن الناسئ (נשיא)هو الاسم الشائع لرئيس القبائل عند بني اسرائيل منذ أزمنة غابرة

ويحدثنا ابن هشام أن أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام بعده على ذلك ابنه (ابن حذيفة) ثم قال بعد عباد قلع بن عباد ثم قام بعد قلع أمية ابن قلع ثم قام بعد أمية عوف بن أمية وكان آخرهم وعليه قام الإسلام وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر الحرم الأربعة رجبا وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئا أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليوافقوا عدة الأربعة الأشهر الحرم فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال إني قد أحللت لكم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل...

هذه أقوال بن هشام عن النسأة وهي توضح قبل كل شئ أن وظيفة النسأة أدخلت على العرب في عصر غير بعيد من ظهور الإسلام ثم إن وجود هذه الوظيفة في بني كنانة يرشدنا إلى سؤال : هل كان لبطن بني كنانة الذي أصدر النسأة علاقة ببطون بني كنانة المتهودة التي سكنت جنوبي مكة ثم لماذا وجدت المقاومة للنصرانية في اليمن وللنجاشي الذي قضى على ذي نواس من جهة النسأة وحدهم دون الزعماء الوثنيين ؟ ألم يكن من المحتمل أن لهؤلاء النسأة علاقة باليهودية ؟...

ولكني أكتفي بما أشرت إليك من العلاقة بين كنانة والنساة وكنانة واليهود ومقاومة النسأة للنجاشي بسبب عطفهم على القضية اليهودية في الجزيرة دون أن أجزم فيها برأي....

ويؤيد أبو معشر البلخي وأبو الريحاني البيروني والمقريزي رأينا في النسأة ويقولون

أن العرب تعلموا عمل الكبسية من اليهود قبل الهجرة بقريب من مائتي سنة وأخذوا يعلمون بالكبس ما يشاكل فعل اليهود من الحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس وقد أطلق العرب على عمل الكبسية بالنسئ أي التأخير غير أنهم خالفوا اليهود في بعض أعمالهم لأن اليهود كانوا يكبسون تسع عشرة سنة قمرية بسبعة أشهر قمرية حتى تصير تسع عشرة شمسية والعرب تكبس أربعا وعشرين سنة قمرية باثنى عشر شهرا قمريا...

كذلك نظن أن لوظيفة الصوفة علاقة باليهود أو بلغتهم العبرية على أقل تقدير

يحدثنا اب هشام "كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتجيز لهم إذا انفردوا من منى فإذا كان يوم النفر أتوا لرمي الجمار ورجل من صوفة يرمي للناس ما يرمون حتى يرمي فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له قم فارم حتى نرمي معك فيقول لا والله حتى تميل الشمس فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له ويلك قم فارم فيأبى عليهم حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه... وكان آخرهم الذي قام عليه الاسلام كرب بن صفوان...

وأما صوفة بالعبرية فإن معناها الحارس وهذا التفسير يلائم ما نلقناه من كتاب السيرة عن الصوفة (צפה)بصر أو الشخص الذي يبصر في الشؤون الدينية لأنه أصدر الأمر حين مسابقة الإفاضة وكان أول من رمي جمار بالحجارة أو الحصى في وادي منى

ومنى هذا من الأصنام المشهورة عند بني اسرائيل في عصور جاهليتها لأننا نعلم من آيات نبوات أشعيا أن منى (מני)كان الها للخمر " وأما الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي فرتبوا إلى جد مائدة وملأوا لمنى خمرا ممزوجا

وكذلك يرى العالم دوزي ان استعمال العرب لأسماء الأسبوع تأثيرا يهوديا إذ لا يمكن تصور استعمال لفظ السبت ليوم من أيام الأسبوع دون أن يأتي من تأثير اليهود

كذلك عرف يوم الجمعة عند أهل مكة بلفظ عروبة وهو لفظ شائع عند اليهود يطلقونه على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد :

ערב שבת, ערב חג הפסח

ومهما يكن من مبلغ تأثير اليهود في العرب فإني أميل إلى الاحتراس والتحفظ لئلا نصل إلى المبالغة والمجازفة في الحقائق التاريخية

على أن هناك مقياسا آخر يجب ألا ينسى وهو ما قلته فيما مضى من أن الصلة الدموية في العنصر والتقارب في اللغة والأخلاق هو أساس التشابه بين العقلية واتجاه الأفكار والآداب بين العنصرين

ولا يمكننا في كل الأحوال أن نستنتج نتائج تتعلق بالنفوذ كما يحكم بعض الذين لا يتعمقون في البحث فيقولون مثلا ان مهنة التجارة وما يتصل بها من دهاء وذكاء ونشاط قد جاءت إلى أهل مكة من يهود بلاد الحجاز إذ ترجع ملكة التجارة عند بطون أم القرى قبل كل شئ إلى مركزها الجغرافي ووقوعها في وسط بلاد العرب وعدم وجود مرافق أخرى للتكسب والارتزاق

ثم إن التشابه العظيم بين اليهود وأهل مكة من وجهة الأخلاق والتقاليد والاصطلاحات الدينية كان سببا في ضلال بعض المستشرقين حتى خيل إليهم أن أهل مكة واليهود قدوا من أديم واحد ونبتوا من نبعة واحدة فأخذوا يذهبون في المبالغات والظنون مذاهب عجيبة ومنهم دوزي الذي يجتهد في أن يبرهن على أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بني شمعون وان تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست إلا وراثة اسرائيلية قديمة ولكننا نعتقد أنه إذا ظهر التشابه بين أهل مكة واليهود أكثر منه بين اليهود والبطون الحجازية الأخرى فإن ذلك يرجع إلى أن مكة كانت أرقى وأرفع من بقية البلاد في شمال الجزيرة ومن أجل هذا كان حرم مكة موضع الاحترام والتبجيل من جميع العرب في الجاهلية.

ومع أني أستنكر استنكارا شديدا ما استنتجه دوزي في أمر حرم مكة وعلاقته

ببطون بني شمعون فإن هناك أمرا يستوقف الأنظار وهو أنه كثيرا ما يحدثنا ابن هشام عن حرم مكة وبنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة في تقديسه الخ... بشكل يشبه ما يقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس بأوروشليم وعلاقة الآباء الأقدمين به وتقديس الملائكة له حتى خيل إلينا أثناء قراءتنا كتاب السيرة لابن هشام في هذه الموضوعات أننا نقرأ صحف التلمود القصصية...

تجتهد طائفة من أنصار **Wellhausen** في أن تبرهن على أن تأثير النصرانية في النفوس العربية الحجازية كان أقوى من تأثير اليهودية مستندين إلى أن عدد نصارى العرب كان أكثر من عدد اليهود ولكن هذا غير صحيح لأن الكثرة النصرانية العربية إنما كانت على أطراف الجزيرة من جهة الشمال أما في داخل الحجاز حيث المراكز التجارية والدينية والفكرية فقد كانت الأكثرية في جانب اليهود بل لم يكن هناك من نصارى العرب إلا عدد قليل جدا

وفضلا عن فضلا فقد كانت الصلة قوية جدا بين مكة ويثرب التي كانت تكاد تعتبر موطنا خالصا لليهود

ويكفينا في تقويض مزاعم هؤلاء المستشرقين أننا نجد أكثر من ثلث القرآن يتكلم عن اليهود ويناقشهم ويهتم بأقوالهم والرد عليها فطورا يمدحهم وتارة يقرعهم ويؤنبهم تأنيبا شديدا فإن ذلك يدل على ما كان لليهود من المكانة العظيمة في نفوس العرب وعلى الصلة المتينة التي كانت تربطهم بهم

لا ننكر على النصرانية تأثيرها في العرب بوجه عام ولكنه على كل حال تأثير ضئيل بالنسبة للنفوذ اليهودي الذي كان واضحا جليا في كل ناحية من نواحي الحياة الروحية والمادية...

وهناك مسألة أخرى تلفت نظر الباحث في كتب بعض المؤرخين من الافرنج وهي ما بزعمونه من أن اليهود كانوا محتقرين في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن ذلك غير صحيح لأن العربي في الجاهلية لم يكن يفهم

البغض والضغينة الدينية كما فهمها المتأخرون ولقد يؤيد الأستاذ النجار رأينا بقوله : لو كان اليهود محتقرين لما اهتم رسول الله بمحالقتهم ولما أهمه أمرهم يوم الأحزاب حين مالوا عنه ولما قام لحربهم بعد يوم الأحزاب على مما لا تهم عليه وإتيانهم بالأحزاب لحربه..... اهـ

وكان عرب الجاهلية يلقبون اليهود أثناء القتال والنضال بألقاب قبيحة ذميمة وكذلك كان اليهود يفعلون ولكن ذلك لم يؤد إلى احتقار اليهود أو التعريض بالقومية اليهودية ودينها وما كان للعربي الذي طبع على حب الحرية والغيرة على الكرامة أن يسلبها من غيره وكل القرائن تدل على أن العرب على اختلاف بطونهم وأديانهم كانوا يتبادلون الاحترام دون أن يعرفوا فرقا بينهم من وجهة الحقوق السياسية والاجتماعية والأدبية فقد نجد كعب بن الأشرف يرثي قتلى قريش كما نجد عباس ابن مرداس يذكر جلاء بني النضير ويبكيهم في قصيدة

وكذلك يمدح أبو سفيان زعيما من زعماء اليهود ويقول :

سقاني فروَاني كميتا مدامة على ظمأ مني سلام بن مشكم

تخيرته أهل المدينة واحدا سواهم فلم أغبن ولم أتندم

فلما تقضي الليل قلت ولم أكن لأفرحه أبشر بعرف ومغنم

وإن أبا غنم يجود وداره بيثرب مأوى كل أبيض خضرم

ولا يمكن أن يعول على ما يؤخذ من القصص والروايات التي جاءت بعد فتور الأحوال بين اليهود والأنصار أو يستدل به على مكانة اليهود في نفوس العرب زمن الجاهلية

كان اليهود موضع الاحترام عندالأشراف والنقباء من قريش وكان رسول الإسلام ينظر إليهم هذه النظرة من التبجيل إلى زمن طويل بعد مبعثه كما سنوضح ذلك فيما بعد

وكان العرب يجهلون الديانة اليهودية ويقولون لليهود " لكم علم ليس لنا "

وقد يحدثنا ابن هشام أن رجلا من يهود الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبيل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس أفضل منه فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا بن الهيبان فاستسق لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة فنقول له كم فيقول صاعا من تمر أو قُدين من شعر فيخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستقي لنا والله ما يبرح من مجلسه حتى تمر السحابة ونسقي قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثا...

والذي يمكننا أن نستنتجه من هذه القصة الخرافية أن مؤرخي العرب كانوا يعتقدون أن الديانة اليهودية وأقوامها كانوا موضع الاحترام في الجاهلية

وكن من نساء العرب من تنذر إذا ولدت وعاش ولدها ان تهوده لأن اليهود كانوا في نظرهم أهل علم وكتاب

* * *

قبيل ظهور الإسلام حدثت حروب عظيمة بين بطون يثرب عرفت بيوم بعاث دامت سنين طويلة كذلك حدث في جهة مكة حرب ضروس عرفت بأيام الفجار التحمت فيها المعارك بين بطون قريش وكنانة في أربعة أدوار يقال لها الفجارات الأربعة

أما الفجار الأول فكان عمر النبي مُحَمَّد فيه عشر سنين وسببه أن بدر ابن معشر الغفاري كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوم رجله وقال أن أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأسقطها وأزالها فاقتتلوا. وسبب الفجار الثاني أن امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاز فطاف بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف وجهها فضحك الناس فنادت المرأة يا آل عامر فنادوا بالسلاح ونادى الشاب يا بني كنانة فاقتتلوا.. وسبب الفجار الثالث أنه كان لرجل من بني عامر دين على رجل كناني فماطله فجرت بينهما مخاصمة فاقتتل الحيان

وكانت آخرها فجار البراض وقد بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة

سنة حين هاجت حرب الفجار بين قريس ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان وكان الذي هاجها أن عروة الرحال من بني هوازن أجاز لطيمة (وهي الجمال التي تحمل المسك) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بطلب غفلته حتى إذا كان بتيمن ذي طلال بالعالية وثب عليه فقتله في الشهر الحرام فلذلك سمي الفجار فارتحل العرب عن عكاظ وهوازن لا تشعر أن البراض قد قتل ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم فأمسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم أياما والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم وشهد رسول الله بعض أيامهم أخرجه أعمامه معهم وقال الرسول كنت أنبل على أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها...

وأما الذي نقلناه عن أيام الفجار فيحتمل أن يكون من العلل المباشرة والقريبة لظهور الهياج بين قبائل قريش وكنانة وهوازن

ويلوح لي أن النضال الشديد الذي ظهر بين قبائل الحجاز في شماله وجنوبه يدل على أنه وجد في القرن السادس ب. م حركة سياسية قوية بين زعماء الحجاز كان كل واحد منهم يطمع أن يستأثر بالحكم ليتمكن من أن يشيد أركان مملكة جديدة

ولكن التنافس أضعف الجميع وقلم أظافرهم وزاد في المصاعب والمتاعب التي كانت تحول بين كل واحد منهم وبين ما يريد حتى ظهر هناك شخص توافرت فيه شروط لم تتوافر في غيره فألف بين القلوب

ومن ذلك الحين أخذت جداول الجزيرة العربية تتجه اتجاها واحدا ويقترب بعضها من بعض إلى أن امتزجت في نهر واحد أخذ يتدفق من قلب الجزيرة ويفيض بقوة حتى غمر وجه الأرض...

وقبيل ظهور الإسلام وجدت في الديار العربية نهضة فكرية عظيمة كان الاضطراب من علاماتها وقبيل الإسلام أيضا أصبحت القلوب صالحة لقبول دعوة دينية جديدة وصارت الديانة الوثنية موضع السخرية جهرا عند بعض الطبقات من المفكرين

يحدثنا صاحب الأغاني أن قس بن ساعدة الأيادي كان يتكئ عند خطبته على سيف أو عصا ويقول " مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا والله ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه وأدرككم أو انه فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه

ومع أن النصرانية واليهودية قد أجدتا الشك في صحة الديانة الوثنية فإنهما لم تفلحا في إدخال تغيير جوهري في النظم الدينية وظلت الوثنية واليهودية والنصرانية في نزاع عنيف دون أن تتغلب واحدة على الأخرى

واننا نعتقد أنه لو ظهر هناك يهودي ذو عاطفة ربانية قوية ودعا العرب إلى الدخول في دين جديد يشبه اليهودية في جوهره ويبقى عربيا في تقاليده وروحه لكانت دعوته قد وجدت آذانا مصغية وقلوبا واعية

كذلك لو كان واحد من المفكرين الحنيفيين أو غيرهم دعا لتوحيد الآله مع إبقاء النظم العربية الاجتماعية التلميدة لكانت دعوته قد صادفت أرضا خصبة

يقول صاحب الأغاني أن أمية بن أبي الصلت " كان قد نظر في الكتب وقرأها وليس المسوح تعبدا وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفة وحرم الخمر وشك في الأوثان وكان محققا والتمس الدين وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبيا يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون ذلك...

ولكن أمية وغيره لم يظهروا بمظهر الأنبياء ولم يجترءوا على أن يغادوا بحياتهم في سبيل الدعوة الدينية وبقيت أفكار أهل الجزيرة العربية مضطربة اضطرابا عنيفا بين اليهودية والنصرانية والوثنية إلى أن ظهر رجل رفع على النبوة وصار غرة ناصعة في جبين الدهر ومجدا باقيا ما بقي الزمان وأرغم التاريخ على أن ينجو نحوا جديدا..

وكان اسمه مُحَمَّد بن عبدالله من آل قريش من مدينة مكة

الباب الخامس

مكة ويثرب ازاء الحركة الإسلامية

مبعث الرسول – كيف يكون البحث في سيرة الأنبياء ؟ طريقة البحث عند رجال العلم ورجال الدين – الظروف التي كانت تحيط بالنبي مُحَمَّد قبل هجرته إلى يثرب – هل سكن اليهود في مدينة مكة قبيل الهجرة – رأي الأب المستشرق لامنس في هذا الموضوع تقسيم العالم **Noeldke** القرآن الكريم إلى أربعة أقسام – الآيات القرآنية الموافقة لمبادئ التوراة الجوهرية – ذكر الآيات القرآنية الأولى لموسى وسردها بعض أنباء بني اسرائيل في مصر – رواية احتكام رسول الله وبني قريش إلى يهود يثرب – ارتياب بعض المستشرقين في صحة هذه القصة الخطيرة – رأي المؤلف في هذا الموضوع – اضطهاد أهل مكة للمسلمين – نزوح فئة من المسلمين إلى الحبشة – لماذا لم يلتجئ المسلمون إلى اقليم من أقاليم العرب أو إلى يهود يثرب ؟ سياسة الحبشة في بلاد العرب – عرض الرسول نفسه على العرب في المواسم – رحلة الرسول إلى الطائف – معاناة الرسول للشدائد والصعاب في سبيل نشر دعوته – التقاء الرسول في العقبة برهط من الخزرج – الفرق بين عقلية القبائل العربية وبطون يثرب – آثار تعاليم اليهودية فيهم – الديانة اليهودية من الأسباب القوية لظهور الإسلام – اعتقاد اليهود بظهور مسيح – تأثير هذه العقيدة في نفوس قبائل يثرب – حاجة بطون يثرب إلى محالفات سرية – قصة الحيسرانس بن رافع وقدومه إلى مكة قبل يوم بعاث – بيعة النساء بالعقبة – بيعة العقبة الكبرى – مطامع بني الخزرج من هذه البيعة – الغاية التي كان النبي يرمي إليها – نتائج بيعة العقبة الكبرى في التاريخ الإسلامي – موقف قريش واليهود إزاء البيعة الكبرى بالعقبة

يوجد العلماء أثناء بحثهم عن حياة العظماء من الجنس البشري عناية عظيمة إلى البيئة التي نشأوا فيها والوسط الذي أحاط بهم ولا يفتأون يبحثون باهتمام شديد عن

الظروف الداخلية والخارجية التي وجدوا فيها لوثوقهم بأن لها الفضل الأكبر في تكوين عقليتهم وتنمية عبقريتهم حتى إذا ما استوفوا أبحاثهم الدقيقة العميقة يأخذون في استنتاج النتائج التي يطمئنون إليها وترتاح لها ضمائرهم

غير أن هذه الوجهة في البحث لا يرتضيها كثيرا رجال الدين أثناء البحث في تاريخ الأنبياء لاسيما من لا يوافقون منهم على فكرة التوفيق بين العلم والدين لأنهم يعتبرون للشؤون الدينية مقياسا آخر وينزلون رجال الوحي منزلة أخرى وينظرون إليهم بعين غير التي ينظرون بها إلى أبطال التاريخ البشري

على أن هذا الاختلاف بين مقياس محققي العلم والدين لا يوجد إلا في تعريف النظرية دون الوجهة العملية في جوهر البحث لأن رجال الدين لا يخالفون الرأي العلمي القائل بأن الوحي إنما نزل على الأنبياء في ظروف داخلية وخارجية دعت إليه الأحوال وبواعث نفسية توافرت في الأنبياء دون غيرهم ممن عاشوا في بيئاتهم وعصورهم ولتقلبات وعوارض نفسية كانت تعرض لهم في ظروف خاصة من سرور وشجون واضطراب

وقبل أن نشرع في توضيح الظروف التي كانت تحيط بالنبي محمَّد أثناء نزول الآيات القرآنية إلى عهد هجرته إلى يثرب فإننا نود أن نبحث في مسألة وقع فيها نزاع بين المستشرقين وهي هل اتصل رسول الإسلام بافراد وجماعات من اليهود قبل هجرته إلى المدينة أم لا ؟

لاشك أن أفرادا من اليهود كانوا يأتون إلى مكة لأشغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون إلى خيبر ليجلبوا منها حلي آل أبي الحقيق التي كانت نساؤهم وفتياتهم تنحلى بها حين زفافهن وغير ذلك

كذلك كان كعب بن الأشرف قد جاء إلى مكة ليرثي قتلى بدر كم جاءت وفود من يهود النضير إلى مكة لتحزب الأحزاب ليوم الخندق وذلك بعد الهجرة

وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ويحدثنا الواقدي أنه وجد في مكة عبد

من اليهود كان اسمه عبدالدار بن جبر دخل في ذمة الرسول بعد أن سمع منه سورة يوسف فكان لها وقع شديد في نفسه ولما بلغ الخبر مشركي مكة أوسعوه ضربا فأعطاه الرسول بعد فتحه لمكة مقدارا من المال فتزوج بامرأة شريفة من بنات مكة

وقد أفرغ المستشرق **Lamens** جهده في أن يبرهن على أن عددا من اليهود كان يسكن مدينة مكة قبيل ظهور الإسلام ولكن نظرياته لا يطمئن إليها الباحث ولو صح ما أدعاه هذا العالم لكان لليهود حي خاص بهم في مكة ولكان لهم معبد خاص يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة ما يشير أقل إشارة إلى وجود شئ من ذلك

غير أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد سكنوا في مدينة مكة كما سكن بعضهم في مدينة الطائف وفي عدة مدة أخرى من الحجاز ولكنهم كانوا قليلين.

يحتمل أن النبي قد اتصل باليهود منذ حداثته لاسيما بعد أن اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة إذ كانت الأعمال التجارية في مدينة مكة مرتبطة ارتباطا شديدا بيهود يثرب وخيبر

ويرتاب بعض المستشرقين في صحة خروج النبي إلى الشام والتقائه بالراهب بحيرا ويعتقدون أن الرسول لم يتجاوز حدود الحجاز طول حياته

وقد قسم العالم **Noeldke**القرآن الكريم إلى أربعة أقسام يشتمل القسم الأول منه على الآيات التي أنزلت قبل الهجرة إلى يثرب ويتضح أن الآيات في هذا الدور كانت موافقة لمبادئ التوراة الجوهرية وكانت ترمي إلى التأثير في النفوس العربية التي كانت تنظر باحترام عظيم إلى تعاليم التوراة ومبادئها " إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى "

وينبئ التنزيل أهل مكة بأن مُحَّدا للعرب إنما هو مثل موسى لبني إسرائيل وينذرهم إن هم لم يؤمنوا بما جاء به النبي مُحَّد ان يصيبهم ما أصاب قوم فرعون فيقول " إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون

الرسول فأخذناه أخذا وبيلا فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا "

كما يقول " قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين "

نفس هذا التعريف يوجد في كتب العهد القديم عن بعض الأنبياء الاسرائيليين ويخاطب الوحي العرب بما يقنعهم بأن النبي ذكر في التوراة وأن بني إسرائيل يعلمونه " وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الأولين أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني إسرائيل

ويشير التنزيل إلى أن هناك وفاقا تاما بين القرآن والتوراة " قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين... ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين "

من هذا يستنتج المستشرقون أن الأفكار في مدينة مكة كانت على علم بدين اليهود وتعاليمه وأن النبي الجديد قد ظهر بمظهر الأنبياء الإسرائيليين كي يثبت صحة رسالته ويؤيد دعوته التي يعلم قريش لها نظيرا في اليهودية

ويعجب المستشرقون من أنه لم يات في هذا الدور أقل ذكر للمسيح أو لتعاليم الإنجيل وأن أول إشارة في القرآن للسيد المسيح لم تكن إلا في السنة العاشرة بعد مبعث النبي مُحَمَّد

وقد يستنتج العالم (**Lesynsky**) من هذا أنه كان هناك بون شاسع بين قلوب رجال عرب الحجاز في الجاهلية وبين مبادئ النصرانية وتعاليمها بينما كانت السور القرآنية في الدور الأول لا تخلو واحدة من الإشارة إلى ما في التوراة والتلميح إلى مواضيعها وذكر شئ من تاريخ بني إسرائيل

مع أن من المؤكد الثابت أن أفرادا من أحرار النصارى وعبيدهم قد كانوا في مكة ساكنين ومختلطين بأهلها ولكن لم يثبت أن أهل مكة قد عرفوا النصرانية

وتعاليمها ومبادئها

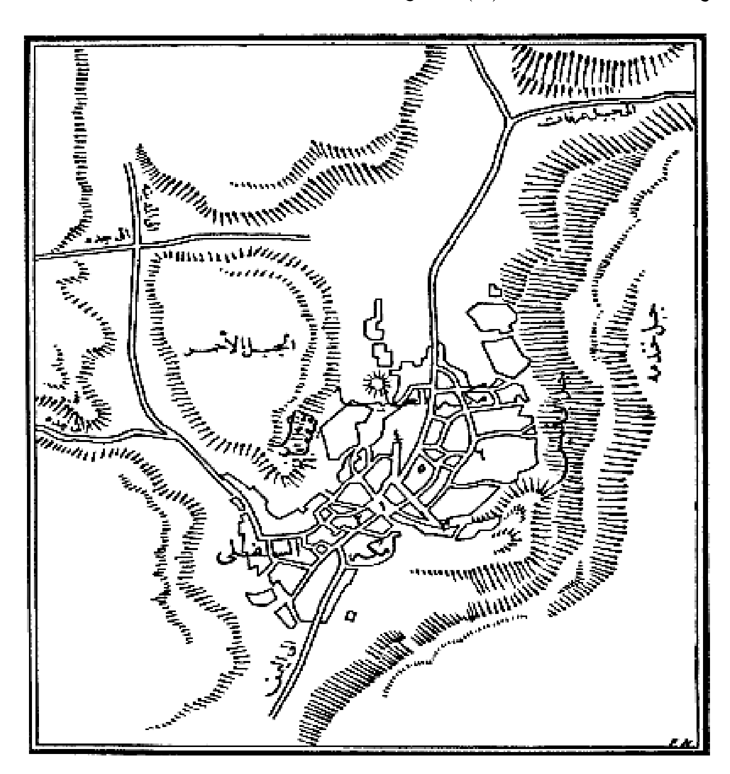
كان التأثر بتعاليم اليهودية شديدا جدا إلى حد أن قبلة الرسول في صلاته كانت إلى جهة أورشليم كما هي عند اليهود فكان الرسول إذا صلى صلى بين الركنين البراني والأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام

ورواية احتكام رسول الله وبني قريش إلى يهود يثرب تدل على ما كان

مكة المكرمة

مقاس الرسم ١، ١٦,٦٦٦

ملحوظات { (١) الكعبة (٢) بيت الندوة (٣) الصفا (٤) المروة
(٥) منزل السيدة خديجة (٦) السوق



وضمت كاب تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام للدكتور اسرائيل ولفنسون.

لليهود في نفوس أهل مكة من المكانة الكبيرة

ويحدثنا ابن هشام أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن مُحَمَّد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهما إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت لهما أحبار اليهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل مُتقوَل فأروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هي فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل مُتقوَل فاصنعوا في الرجل ما بدا لكم فأقبل النضر بن الحارب وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة وأخبرا بني قريش ما سمعا من أحبار اليهود فجاءوا إلى رسول الله فقالوا يا مُحَمَّد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول وقد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هي فقال لهم رسول الله أخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا مُحَمَّد غدا واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه وحتى حزن رسول الله ومكث عنه الوحي وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه وعلى أنه لم يكل الأمر لمشيئة الله وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتنة والرجل الطواف والروح

وينفي بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سببا في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذي القرنين

وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية وهي أن في التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف ومن هذه القصة أخذ أحبار اليهود الأسئلة التي وجهوها للرسول بواسطة وفد بني قريش

وتؤيد هذه القصة ما ذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود إذ لو وجد منهم في مكة ما أوفد بنو قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبي وإذا وجد منهم أحد فلابد أن يكون غير عالم

انتهى بعد ذلك دور المناقشات بين الرسول وأهل مكة وبدأ النفور والاضطهاد ويحدثنا ابن هشام أن أهل مكة تآمروا على من أسلم واتبع الرسول فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش

ولما رأى الرسول ما يصيب أصحابه وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء أشار عليهم بالنزوح إلى بلاد الحبشة وكان لهم ملك لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب الرسول إلى الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم

ولماذا لم يلتجئ هؤلاء المهاجرون إلى إقليم من أقاليم العرب أو إلى يهود يثرب ؟ بعض المستشرقين من المتعصبين للنصرانية يقولون بأن النبي إنما أشار على المسلمين بالنزوح إلى الحبشة لأنه كان يفضل وجود المسلمين في بيئة مؤمنة من النصارى على وجودها بين المشركين ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن عاملا سياسيا هو الذي كان السبب في نزوح المهاجرين إلى الحبشة

كانت الأمة الحبشية تطمع منذ أجيال قديمة في فتح الأقاليم العربية وكان ملوك الحبشة يراقبون أحوال الجزيرة مراقبة شديدة ويتحينون الفرص لتنفيذ مطامعهم الاستعمارية، من أجل ذلك بالغ النجاشي في الاحتفاء باللاجئين من مكة أملا في أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل في شؤون مكة الداخلية

ولم يلجأ المهاجرون إلى قوم من العرب في الجزيرة مخافة من هيئة قريش وعدوانها

وكانت بلاد العرب مرتبطة برجال قريش ارتباطا تجاريا ودينيا وكان لبعضها محالفات وعقود سياسية مع رجال قريش

ولهذا السبب نفسه منع النبي الهجرة إلى يثرب إذ كان بين بطون اليهود وآل قريش علاقات تجارية متينة لم تكن تسمح لليهود أو للأوس والخزرج بالاحتفاء بأعداء قريش وفوق ذلك فقد كانت الحرب دائرة بين بطون يثرب في ذلك الحين (يوم بعاث)

إذا فقد كانت بلاد الحبشة أقرب إقليم هادئ إلى مكة وكانت هي البلاد التي تمكن الهجرة إليها مع أمن المهاجرين على حياتهم وأموالهم

وبعد هجرة المسلمين إلى الحبشة أخذ الرسول يعرض نفسه على العرب في المواسم ويدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل

وقد رحل إلى الطائف وعرض نفسه على بطونها فلم يقبلوا منه وخذلوه وأنكروه فقال له أحدهم هو يمرطن ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك وقال الآخر أما وجد الله أحدا يرسله غيرك وقال الثالث والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك بالكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يرجمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط فلما اطمأن روعه قال اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حليتي وهو أني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى عبد يتهجمني أم إلى عدو ملكته أمري

وهذه القصة المؤثرة تدل على الشدة التي كان يعانيها الرسول أثناء عرضه دعوته على بطون الطائف ثم تظهر مقدرته الفائقة التي لا توجد إلا عند كبار الأخيار من رجال التاريخ البشري حين لم يكن يبالي بعدوان البطون عليه ولا بقوارص الكلم التي كان السفهاء يوجهونها إليه بل مضى في سبيله يدعو العرب إلى الله بكل ما أمكنه من حيلة ووسيلة ولكن نجاحه كان بطيئا جدا في ذلك الحين لأن تعاليمه كانت

تقوم على ترك عبادة الأصنام وهدم العقيدة الراسخة في نفوس العرب " وعلى أن تسلخ هبل واللات والعزى من أعناقها " وكان ذلك فوق ما تهضمه عقولها وتحتمله نفوسها ثم رجل الرسول إلى مكة

وبقي النبي يعاني الشدائد والصعاب في سبيل نشر دعوته وأعداؤه يزدادون في إساءتهم إليه حتى التقى بأفراد من عرب يثرب فوجدت دعوته لديهم آذانا مصغية وقلوبا واعية فبينما الرسول في العقبة إذ لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا فقال لهم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال من موالي اليهود قالوا نعم قال أفلا تجلسون أكلمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهودا كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شئ قال لهم اليهود إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلموا والله أنه للنبي الذي وعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ثم انصرفوا عن الرسول راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا

ويتضح من هذا أنه كان هناك بون شاسع بين عقلية القبائل القاطنة بالطائف وغيرها من سائر القبائل التي عرض عليها الرسول دعوته وبين عقلية هذا النفر من رجال يثرب إذ كانت الأولى عقليتها جامدة جافة ليس فيها أي استعداد للتصور الروحي وكانت الثانية عقليتها مرنة قابلة للتطور مستعدة للترقي فلم تكد تسمع دعوة الرسول حتى قلبتها واعتقدتها ووجدت دعوة الرسول في هذه النفوس أرضا خصبة صالحة لنمو الدين الجديد فيها وازدهاره

ولا شك أن هذا أثر من آثار التعاليم اليهودية ونتيجة من نتائج الاختلاط

الشديد بيهود يثرب

وهكذا بعد تلك الشدائد والرزايا التي نزلت بالنبي بسبب عرضه دينه على العرب في تمسكهم الشديد بالقديم وهجومهم على كل من يتعرض لدين آبائهم وجد أمامه بطونا بتربية دخلت في دينه بلا مقاومة وأخذ أفرادها ينظرون إليه نظر التعظيم والتقديس لما ألقى عليهم الرسول

ومن هنا يمكن أن يقال إن اليهود كانوا من أهم الأسباب التي ساعدت على ظهور الإسلام وإن يكن ذاك بطريقة غير مباشرة

وهناك ملاحظة أخذناها من هذه القصة – قصة النفر من الخزرج – ولم نجد من تنبه إليها من المؤرخين وهي إن ما رسخ في نفوس اليهود من اعتقاد مجئ مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء كان له الأثر الكبير في انتشار الإسلام كما كان سببا في ظهور النصرانية في فلسطين عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سببا لظهور عدة أشخاص من اليهود في القرون القديمة والوسطى بمظهر الأنبياء والمرسلين حيث عرضوا على أخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لأنفسهم دعوة المسيح المنتظر

وقد ملأت هذه القصة صحفا كثيرة من صحف الأدب الإسرائيلي القديم والحديث وكثيرا ما كانت سببا في نزول بلايا ورزايا كثيرة باليهود في أدوار مختلفة ولا تزال هذه العقيدة إلى اليوم راسخة في نفوس الطبقات المتدينة من اليهود وإذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذي يحنون إليه منذ أزمان طويلة أنكروا ادعاءه وسفهوا قوله ورفضوا الأذعان لما يدعوهم إليه. وكأن الأمة الإسرائيلية كانت ترمي لهذه الفكرة إلى غاية معنوية لا يريدون تحقيقها بوجه من الوجوه

ولكنها لعبت دورها بين العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام إذ كان العرب يسمعون من اليهود أثناء أوقات الشدائد والأزمات أن المسيح المنتظر سيأتي ليتغلب على أعداء الشعب المختار فلما عرض النبي رسالته على أفراد من الخزرج تنبهوا إلى أقوال اليهود فاقبلوا يعتنقون الإسلام ويؤمنون بدعوة الرسول

وهكذا أدت تلك المحادثة بين الرسول وبين النفر من الخزرج إلى هذه النتيجة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري

لكن هناك عوامل أخرى ذات أهمية كبيرة وهي تلك المقاصد السياسية التي كانت ترمي إليها بطون العرب بارتباطها بروابط العروة الوثقى مع النبي

والذي ينعم النظر في تاريخ بطون يثرب يرى أن الطوائف الضعيفة في المدينة كانت تعمل سرا على إيجاد محالفات مع قبائل عربية قريبة وبعيدة

فمن المحتمل إذن أن تكون الأوس والخزرج قد حالفت بطون بني غسان لمحاربة اليهود في عصر أبي جبيلة كذلك يحتمل أن تكون تلك البطون قد عرضت المحالفة على قريش ولكن لم يصل شئ عنها إلينا أو أن قريشا قد استنكرتها لمصلحتها التجارية

ونحن نعلم أن بطون الأوس قد أرسلت قبل يوم بعاث وفدا إلى مكة وكانت في ذلك الحين عاجزة عن محاربة بطون الخزرج وكان رائد وفد الأوس يرمي إلى تحريض قريش على الخزرج ولكن قريشا رفضت الدخول في أمور كان يشتم منها رائحة الدماء

ويحدثنا ابن هشام عن هذا الوفد " إن أبا الحيسرانس بن رافع قدم مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم أياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج وقد سمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم هل لكم في خير مما جئتم له فقالوا له وما ذاك قال أنا رسول الله بعثني إلى العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل على الكتاب فقال إياس بن معاذ وهو غلام حدث هذا والله خير مما جئتم له فلطمه أبو الحيسر إياس بن معاذ على وجهه وقال دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس ثم انصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج

وهذه القصة ذات شأن عظيم في فهم تاريخ بطون يثرب وإني لأميل إلى

الاعتقاد بأنه لو لم تكن لها صلة بالرسول لأهملها ابن هشام كما أهمل مؤرخو العرب القدماء ذكر محالفات أخرى مع قريش جاءت الأوس أو الخزرج لتعرضها عليها

أما بعد يوم بعاث فقد ظهر عند بطون الخزرج المغلوبة على أمرها أن تقتفي أثر الأوس في أيام عجزها وكانت بطون الخزرج تحن إلى الثأر من الأوس واليهود معا لأنهم قد اثخنوا فيهم إثخانا وبالغوا في قتلهم فلما ذهب النفر من الخزرج إلى مكة لتأدية فروض الحج وكان قلبهم يفيض أسى وحزنا فلم يكد يعرض الرسول دعوته عليهم حتى قبلوا منه وآمنوا بدعوته وبايعوه لأنهم أرادوا أن يكون لهم منه مسيح ينقذهم مما يعانون من بؤس وشقاء

وفي العام المقبل في موسم الحج حدثت بيعة العقبة المشهورة ببيعة النساء وفي الموسم الثالث تمت البيعة الكبرى بالعقبة وقد اشترك فيها اثنا عشر نقيبا من نقباء الأوس والخزرج وأخبارها مطولة في سيرة ابن هشام

وأما الغرض الذي كان يرمي إليه الرسول فكان غرضا دينيا قبل كل شئ ثم إلى إيجاد قوة لمحاربة قريش التي تسئ إليه وإلى كل مؤمن بينما كانت الغاية التي يرمي إليها بنو الخزرج سياسية قبل كل شئ وهي إيجاد قوة لمحاربة عدوهم الذي بالغ في قتلهم وإذلالهم وهو بطون اليهود في يثرب

وقد قال الزعيم الخزرجي أبو الهيثم للرسول " إن بيننا وبين الرجال حبالا وأنا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم الرسول وقال بل الدم الدم والهدم الهدم وأنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم

وإذا سلمنا بصحة هذا الحديث فإننا نقرر أن الغاية التي كان بنو الخزرج يرمون إليها من مشروعات بيعة العقبة الكبرى ظاهرة جلية إذ هي مقاتلة يهود يثرب وهدم كيانهم

أما النبي فقد وعدهم ما وعد لكسب ثقتهم التامة وأما الغرض الذي كان يسمو

إليه في الواقع فقد كان غير غرضهم تماما إذ لم يكن بعد قد نشأ بينه وبين اليهود شئ من العداء ولم يكن يضمر لهم أقل شر بل كان يرمي إلى توحيد بطون يثرب جميعا وجعلهم أمة واحدة ليتمكن من أن يحارب بهم أعداءه !.

وكذلك يحتمل أنه وعد النفر من الخزرج الذين التقى بهم الرسول في البيعة الأولى بأن يقاتل أعداءهم من الأوس واليهود جميعا ولكن في بيعة النساء قد اشترك بعض النقباء من الأوس ومع أنه لم يشترك أحد من زعماء اليهود في البيعة الكبرى فإن النبي كان يعتقد رغم هذا أن سيدخل اليهود في ذمته حين يظهر في يثرب

والذي مهد السبيل وهيأ القلوب للبيعة الكبرى هو مصعب بن عمير الذي ذهب مع النقباء من بطون يثرب بعد بيعة النساء وقرأ مع الأنصار القرآن وألف بين قلوبهم وكان الأوس والخزرج يكره بعضهم بعضا فكرة بعضهم أن يؤمه البعض الآخر

ولكن مصعب بن عمير استطاع أن يحالف بين النقباء الاثنى عشر في يثرب وأن يأتي بهم متآلفين متضامنين في غاية واحدة إلى البيعة الكبرى

وهنا يعترضنا سؤال وهو لماذا لم يشترك من اليهود في هذه البيعة أحد ألم يكن مصعب بن عمير يسعى لإدخالهم في الحلف أو أن اليهود لم يلبوا دعوته أو أنه خشي من دخول اليهود في هذه البيعة أن تضعف عزيمة زعماء الخزرج ؟..

هذه أسئلة يجب ألا تغيب عن بالنا في أثناء بحثنا في تاريخ البيعة الكبرى بالعقبة

وهنا يعن لنا سؤال وهو كيف كان موقف قريش واليهود إزاء اتجاه الرسول إلى بطون يثرب العربية التي انتهت بالبيعة الكبرى بالعقبة ؟

لقد رجعنا إلى ما كتبه العرب عن حركات قريش أثناء البيعات في مواسم الحج من ناحية بطون الأوس والخزرج فوجدناهم اقتصروا على بسط أعمال زعماء قريش بعد البيعة الكبرى وفي أثناء العمل لها فهل يمكننا أن نصدق أن قريشا وقفت موقف الحياد في تلك السنوات الثلاث التي استمرت فيها المحادثات والمفاوضات بين انصار الرسول وبين بطون يثرب ونحن نعلم أن زعماء قريش قد أعلنوا عداوتهم للديانة

الجديدة منذ نشأت ولم يألوا جهدا في قتلها وهي في المهد ولم يتركوا وسيلة لا يقاد الفتنة ضد المسلمين إلا لجأوا إليها حتى لقد أرسلوا الوفود إلى الحبشة يستعينون بها على إخراج المؤمنين من ديارهم، أيمكن أن نسلم بأن قريشا أغضت أو تغاضت عن تلك الحوادث الهامة التي كانت تجرى في مكة في حين كان القوم يؤدون شعائرهم الدينية وكانت تلك الحركات العدائية مصوبة إلى العقائد القديمة من ناحية عنصر عربي له قوة ونفوذ في شمال الحجاز بأجمعه ؟

إزاء هذا لا يمكننا أن نسلم بذلك الحياد المظنون بل نرجح أن قريشا بذات كل ما كان في وسعها من القوة والنفوذ لنحبط مشروعات الرسول ولنرجع زعماء الأوس والخزرج إلى موقفهم الأول ولكنها خابت في هذا المسعى لأن بطون يثرب لم تستمع لهم إذ كانت تأثرت بنفوذ النبي ورأت أن مصالحها السياسية والاقتصادية تقضي بالإنضمام إليه

وأنه ليعنينا أكثر من هذا أن نعرف موقف يهود يثرب إزاء هذه البيعة الكبرى بالعقبة فإن المراجع العربية لم تشر إلى حركاتهم ونياتهم إزاء هذه البيعة الكبرى كأن الدعوة الإسلامية لم تصل إليهم وكأنهم لم يقفوا على شئ من أعمال البطون اليثربية العربية

ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والإجتماعية خصوصا إذا لاحظنا اتجاه الدعوة الإسلامية صوب المدينة وميل زعماء الخزرج إلى الإتصال بالرسول ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد مما جعل زعماء بني النضير وقريظة يراقبون حركاتهم جميعا ثم نعلم أن الإسلام لم ينشر خفية في يثرب وكيف وقد كان مصعب بن عمير يدعو الناس إلى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون وكان يتنقل من بطن إلى بطن ومن حي إلى حي مدة طويلة ثم إننا نعلم أن عددا من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج فمن البعيد إذن أن يجهل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الأخبار

نحن لا نشك في أن اليهود لم يكونوا متحدين في ميولهم السياسية والاجتماعية فقد كانوا في شقاق دائم ولم تظهر بينهم الألفة إلا في أيام البؤس والشدة كما اتحد بنو النضير وبنو قريظة في يوم بعاث ضد عدوهم من بني الخزرج وفي يوم بعاث كان بنو قينقاع يحاربون إلى جانب صفوف الخزرج ضد أبناء جلدتهم وقد بالغ اليهود في قتله وعداوة بني قينقاع لبقية اليهود قديمة فيما يرى بعض المستشرقين إذا أكرههم اليهود على الخروج من مزارعهم وإلا الإكتفاء بجبهم الذي كان يحميه بنو الخزرج

وأمامنا عنصر ثالث من اليهود هو البطون المتهودة الصغيرة وكان من بطون العرب في يثرب أسر تهودت ولم تخرج من ديارها بل بقيت محتفظة يمتازها بين قومها ونحن لا نجد لهذه البطون المتهودة ذكرا في النضال العنيف ضد الإسلام

فهل نظن أنهم لم يتدخلوا قط في شؤون الحرب أو أنهم قاتلوا في صفوف أبناء دينهم ولم يذكرهم المؤرخون لقلتهم وقد يصح أن نفترض أنهم مع تهودهم آثروا النزعة القومية على العاطفة الدينية فلم يشتركوا في حرب اليهود للمسلمين ؟

كانت العلاقات بين اليهود وبين قريش في غاية الصفاء لذلك نفرض أنه إذ لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فإنهم لابد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على احباط أعمال المسلمين في المدينة وكذلك كان فإن الذي يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف زعيم بني النضير وبين الرسول يرى أن ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الإسلامية منذ وصلت أرض يثرب والعداء الذي استفحل أمره بين الجهتين يؤيد ما نقول

ولكن إذا اقترضنا اتفاق بعض زعماء اليهود مع قريش للتحرش بالإسلام فإننا نعلم من جهة أخرى أن مخيريق اليهودي أحد زعماء وأغنياء بني النضير كان من أوفى الناس للرسول وأكثرهم ميلا إليه منذ هجرته وكذلك أظهر عبدالله بن سلام ولاء للنبي قبل أن تنشأ الأزمة بين النبي وبين يهود المدينة

كل ذلك يؤيد ما نميل إليه من أن النزعات السياسية عند زعماء البطون كانت

مختلفة كل الاختلاف وهذا كله فرض قد يساعدنا في البحث عن العلاقات بين المسلمين وبين قريش واليهود

ويقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار وقد ذكر المؤرخون وأصحاب السير أن أهل يثرب لما بايعوا النبي البيعة الكبرى علمت قريش في تلك الليلة بتلك البيعة مع أنها كانت سرية لم يعلم بها وثنيو أهل يثرب فمن الذي أفضى إلى قريش بذلك الأمر ؟

لا جائز أن يكون أحد المبايعين أخبرهم بما كان. والوثنيون لا علم لهم بشئ والذي نفترضه أحد أمرين :

الأول أن تكون قريش تبهت إلى الأمر وراقبت مُحَمَّدا من حيث لا يدري حتى إذا اجتمع بأنصاره بلغهم عينهم بما كان ففطنوا للأمر

الثاني أن أحد اليهود من تجار الموسم رأى جيرانه في الدار على حال غير معتادة ففطن للأمر وأسر إلى قريش بما رأى

وقد ذكر المؤرخون أن قريشا عاتبت أهل يثرب على ما كان من أمر بيعة الرسول فسكت من كان منهم مؤمنا ودخل في بيعة النبي وتكلم الوثنيون فأنكروا أن يكون حصل منهم شئ تكرهه قريش وحلفوا لهم على ذلك فرجع القرشيون حين سمعوا ذلك..... اهـ

ومهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فإنها من الحوادث ذات النتائج الخطيرة في التاريخ الإسلامي

وإني أعتقد أنه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك السنة لأن قيمتها لم تكن أقل شأنا من قيمة هجرة الرسول إلى يثرب... ومع ذلك فلم يفتهم شئ كثير فإن الهجرة حصلت في السنة التالية لها عن قرب

الباب السادس

هجرة الرسول إلى يثرب
وإجلاؤه بني قينقاع والنضير عنها

آمال اليهود التي كانوا ينتظرون تحقيقها بعد قدوم النبي إلى يثرب – معاهدة الرسول مع يهود يثرب – نص الصحيفة – آراء المستشرقين فيها – قيمة هذه الصحفية – نظام الحكم في منطقة يثرب قبل الهجرة – رغبة الرسول في التأليف بين قلوب المسلمين واليهود – كيف نشأ سوء التفاهم بين الرسول واليهود – بعض أسباب جوهرية لسوء التفاهم أهملها المؤرخون – المجادلة الدينية سبب مباشر للخصومة – اشتداد الأزمة السياسية بين الرسول واليهود – فشل الطائفة المعتدلة من اليهود في سعيها لإرجاع المياه إلى مجاريها – دور المنافقين في هذا النزاع – يوم بدر – لماذا لم يشترك اليهود في القتال يوم بدر ؟ – دعوة الرسول بني قينقاع إلى الإسلام – الأسباب التي أدت إلى نشوء العداوة بين المسلمين وبني قينقاع قبل غيرهم من اليهود – رد بني قينقاع على دعوة الرسول – جلاؤهم عن المدينة – آيات قرآنية نزلت في جلاء بني قينقاع عن المدينة – يوم أحد – امتناع بني النضير عن الاشتراك في هذه الموقعة – مخيريق اليهودي صديق الرسول – قتل كعب بن الأشرف – نقطة خلاف بين ابن هشام واليعقوبي – أمر الرسول فإجلاء بني النضير عن المدينة – أسرار بني النضير على المقاومة بتشجيع زعيم المنافقين – نزول بني النضير على حكم الرسول – مغانم بني النضير – شعر العرب في يوم بني النضير

لا شك أن اليهود كانوا يرصدون الأحوال التي طرأت على يثرب بعد البيعة الكبرى بالعقبة ويراقبون تطور الحوادث باهتمام شديد ولم يكن يدور في خلدهم أن سيحدث ما يوجه الحوادث في تيار مضاد لمصالحهم ومضاد لكيانهم ولو أنهم تبينوا في مظاهر الخزرج ما يدل على شئ من ذلك لأعلنوا الحرب جهرا منضمين إلى حلفائهم

من البطون اليثربية أو منضمين مع قريش

ويلوح لي أن اليهود كانوا ينظرون بفارغ الصبر قدوم النبي إلى يثرب وكانوا يعتقدون أنه في مصلحتهم فقد نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبي في يثرب بأعلى صوته " هذا جدكم قد جاء "

كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذي ينشر دعوة دينية تتفق في جوهرها مع عقائدهم وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بني إسرائيل يدعو إلى توحيد الآله وإلى تعاليم التوراة وإلى تمجيد إبراهيم وموسى إنما هو ظاهرة غريبة في التاريخ البشري

ولا شك أنهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية وأنه كان لهذه الآيات وقع حسن في نفوسهم جعلهم يؤملون في هجرة النبي إلى يثرب آمالا كبارا

ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أو على الأقل يرجون أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل في دينهم حيث يتعاونون على محو عبادة الأصنام وقد يحتمل أنهم كانوا يرجون أيضا أن يتمكن الرسول من التأليف بين البطون اليثربية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التي كانت في حاجة شديدة إلى الهدوء والسكينة وكانوا يعتقدون أنه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة في الجزيرة ولتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها

من المحتمل أن آمالا من هذا النوع كانت تجيش في صدورهم أثناء الفترة التي كانت بين البيعة الكبرى وبين الهجرة

كذلك كان الرسول يرغب في التقرب إلى اليهود نظرا لمكانتهم الرفيعة من الوجهة الأدبية والمالية والسياسية في البلاد الحجازية وكان يعتقد أن اليهود يدخلون في ذمته وملته بلا مقاومة بل يرحبون بدعوته التي تشبه في جوهرها تعاليم الآباء الأقدمين من بني إسرائيل حيث يكون منهم ومن البطون العربية أمة واحدة تبذل النفس والنفيس في سبيل تنفيذ مشروعاته

وقد عقد الرسول بعد قدومه إلى يثرب معاهدة ودية مع اليهود وقد جاء ابن هشام بنص هذه المعاهدة ويقول :

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم عليهم وشرط واشترط لهم

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عافيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مفرجا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل

ولا يحالف مؤمن مولي مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بغى أو ابتغى وسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين أو أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أخدهم

ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس

وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غارية غزت معنا تعقب بعضها بعضا وأن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينه فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الاقيام عليه وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه وأنه من نصر أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخد منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى مُحَمَّد ﷺ

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وأن لبني الشطنة مثل ما ليهود بني عوف وأن البردون الاثم وأن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن مُحَمَّد على الله عليه وسلم وأنه لا ينحجز على ثار جرح وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم امرؤ بحليفة وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا

آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن الله وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى مُحَمَّد رسول الله ﷺ وأن الله على أنقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من تضرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة..... اه

وقبل أن تتعرض لهذه المعاهدة نقول : إن الصحائف التي عقدها الرسول مع المشركين واليهود تنقسم إلى قسمين : القسم الأول يشتمل على عقود وعهود وقعت حقا وشهد بوقوعها القرآن الكريم وأثبتها المؤرخون القدماء أما القسم الثاني فيشتمل على عهود غير صحيحة نحلت بعد وفاة الرسول لأغراض شتى إذ كان الخلفاء يقرون كل ما وعد به النبي ولو لم يكن مكتوبا

ولا يشك المؤرخون في أن النبي عقد مع اليهود عقودا مختلفة بعد حضوره إلى المدينة إذ كان يخاف على حياته وحياة انصاره ويود عقد المحالفات مع اليهود الذين لعبوا دورا هاما في يثرب. وفي القرأن تأنيب لليهود على نقض العهود وهو أصدق دليل على أنه عقدت معهم معاهدات

وقد ذكر ابن هشام عقودا مختلفة عقدت بين اليهود وبين الرسول عدا هذه المعاهدة وقال أبو عبيد في كتاب الأموال : إنما كتب رسول الله هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية وإذ كان الإسلام ضعيفا وكان لليهود إذ ذاك نصيب من المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب...

وكانت هناك صحيفة خاصة بينه وبين بني قريظة وبين الرسول وبين يهود خيبر وتيماء ووادي القرى وذكر ابن سعد عقودا عقدها الرسول مع يهود بني غدية وذكر صاحب فتوح البلدان صحيفة عقدت بين الرسول وبين أسرة شريفة من اليهود

وكل هذا يؤيد وجود معاهدات بين النبي وبين اليهود ولكن من العسير أن تأنس إلى جميعها كما يفعل المستشرقون فإن ابن اسحق لم يحدثنا عن معاهدات مخطوطة وصلت إليه وإنما يكتفي بالرواية عن السابقين وهذا لا يقدح في قيمة هذه الصحيفة التاريخية التي نرجو أن تزيل بعض الغموض من حياة القبائل العربية واليهودية بالمدينة

أما الغرض الذي كان يرمي إليه الرسول من وراء هذه الصحيفة وما إليها من العهود التي عقدها مع بطون يثرب فهو هدم النظام القديم وإيجاد نظام جديد يمكن به أن تتوحد العناصر اليثربية وأن تعود يثرب بعد فرقة أحيائها مدينة واحدة فقد كانت يثرب منقسمة إلى عدة دوائر وكانت كل دائرة تابعة لبطن من البطون وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين يشتمل القسم الأول منها على الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها وكان من الزراع والفلاحين فئة تضم هيئة البطن من أصحاب الأرض الزراعية تعمل في الفلاحة ولها ما للبطون التي تملك الآطام من الامتيازات والحقوق وفئة كانت تجمل العمل المستأجرين من البطون اليثربية وهم أحرار ولهم حقوق الأحرار ثم وجدت طبقة العبيد التي لم يكن لها من الحقوق إلا القليل

أما القسم الثاني من الدائرة فكان يملك الآطام وكان البطن يملك أطما أو آطاما وهذه الآطام كانت ملكا خاصا بالأسر العريقة وكان رئيس الأسرة صاحب السلطان في الأطم كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون

وكانت أهمية الآطام عظيمة في يثرب فكان يفزع إليها أفراد البطن عند هجوم العدو ويأوى إليها النساء والأطفال والعجزة حين يذهب الرجال لمقاتلة الأعداء وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ذلك أنها كانت معرضة في أماكنها المكشوفة للنهب والسلب وكان الأطم مرجعا لكنز الأموال والسلاح وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه كما كانت تقام على أبوابه الأسواق

وكانت الآطام تشتمل – كما نظن – على المعابد وبيوت المدراس إذ كانت فاخرة الأثاث كثيرة الأدوات مملوءة بالأسفار فكان يجتمع فيها الزعماء للبحث

والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة حين يهمون بإبرام العقود والأتفاقات

ثم وجدت في يثرب بطون لم تكن تملك الآطام وكانت تقيم في الأحياء حيث تحمي البطون الكبيرة مواليها من إغارات البطون الأخرى وكانت الأحياء متضامة يلاصق بعضها بعضا وكانت مع هذا مختلفة في نظمها الداخلية حيث يهتم كل حي بشؤونه

وإذ كانت الآطام في نظامها قد وجدت في شمال الحجاز أكثر مما وجدت في أي بقعة أخرى من بلاد العرب فإننا نرجح أنها كانت متأثرة بالنظم الاجتماعية اليهودية التي كان يجري عليها اليهود في وطنهم الأصلى فلسطين

وهنا يعرض هذا السؤال : مم اشتقت كلمة اطم ؟ فإن معناها بالعربية غيره بالعبرية يقول صاحب الروض الأنف الأطم اسم مأخوذ من ائتطم إذا ارتفع وعلا يقال ائتطم على فلان إذا غضب وانتفخ والاطامات نيران معروفة في الجبال لا تخمد فيها تأخذ بعنان السماء فهي أبدا باقية لأنها في معادن الكبريت

أما العبرية فلفعل اطم (אטם) معان شتى يقال اطم عينيه أغمضهما وأطم أذنيه سدهما والاطم في الجدران والحيطان هي النوافذ المغلقة من الخارج والمفتوحة من الداخل ويستعمل الاطم في السور أي الحائط الضخم

وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم أطم لأنه كان في إمكانهم أن يغلقوا أبوابه وإن كانت له نوافذ تقفل من الخارج وتفتح من الداخل

كانت الوظائف المختلفة من دينية وسياسية تنتقل بالوراثة من السلف إلى الخلف في الأسرة الواحدة التي تنفرد بعمل من الأعمال وكانت البطون الكبيرة أصحاب الحكم في يثرب وكان كل بطن يجتهد في أن ينفرد بالنفوذ

وكان كل بطن من البطون الكبيرة يضم إليه طائفة من البطون الصغيرة تعد من مواليه وكان يشرف على مزارعها ومتاجرها وحقوقها وإذا وقعت إغارة عدها واقعة على رعاياه فطالب بالثأر أو دفع الدية وكان أفراد البطن الصغير يلجأون إلى آطام

البطن الكبير إذا هاجمهم العدو وكان البطن الصغير بتابعيته للبطن الكبير مضطرا إلى الاشتراك في الحروب التي توجه إلى البطن الكبير وإلا رمى بالتمرد والعصيان ومع هذا حافظت البطون الصغيرة على شخصيتها ولم تسمح للبطون الكبيرة بأن تحُدَ من حريتها وكان من نتيجة ذلك أن تجنبت البطون الكبيرة كل ما يهيج البطون الصغيرة

وكان هناك شبه توازن في نظام الحكم بين البطون الكبيرة فكانت تثور بقية البطون إذا هم بطن كبير بالاستئثار بالنفوذ

هذا كل ما يمكن أن نفرضه واقعا عن نظام الحكم في يثرب ولا نعلم بالضبط كيف وصلت إلى هذا النظام فليس لدينا من المصادر ما نعرف به كيف انتقلت البطون اليثربية من البداوة إلى النظام المعقد الذي وصلت إليه قبيل ظهور الإسلام ولكنه من المرجح أن يكون هذا النظام نتيجة لحروب وحوادث وقعت في قرون مختلفة قبل هجرة الرسول إلى يثرب فإن النظم الاجتماعية لا توجد إلا متأثرة بالحوادث راقية كانت تلك النظم أو منحطة

كان تضافر تلك البطون وتوافقها نافعا لها كل النفع في درء الأخطار الخارجية التي كانت تهددها من سائر البلاد العربية وكان يمكن أن يصل هذا التوافق إلى شئ من النظام الجمهوري الراقي ولو استطاعت يثرب أن تتحد اتحادا يقوم على أساس التعاون والتوازن الصحيح لاستطاعت هذه القوة أن تبسط سلطانها على قبائل الجزيرة العربية

وما يذكر في المراجع العربية من أن بطون يثرب أرادت أن تملك عليها عبدالله بن أبي وأنها نظمت له الخرز لتتوجه فذلك مشكوك فيه لأسباب منها أن رهط عبدالله كان قد غلب على أمره يوم بعاث فليس من المعقول أن يرتاح الأوس واليهود بعد فوزهم المبين إلى تمليك زعيم من الخزرج وكانوا لهم من ألد الأعداء

على أن عبدالله بن أبي لم يكن صالحا للقبض على ناصية الحكم في يثرب وإنما كان ضعيفا دساسا مترددا لا يستقر على حال...

يضاف إلى ذلك أن إيجاد عرش في يثرب كان يقضي على استقلال البطون وما كان يمكن ان تصل يثرب إلى شئ من هذا بغير الحرب وسمك الدماء

كل هذا كان الرسول يعلمه وكان يعلم أنه يتنافر مع أغراضه العظيمة فلم يربدا من هدم نظام يثرب فقد كان في حاجة شديدة إلى قوم مؤتلفين لم تفرق بينهم الأهواء المتعاكسة يستطيع أن يسوسهم بإرادته ونفوذه وهؤلاء كانت سياسة الآطام والاحياء مزقتهم شر ممزق فكان من الحزم أن يهدم نظام الطوائف وأن يؤسس نظاما جديدا وكان سبيله إلى غايته أن يعقد العقود بينه وبين البطون اليثربية وأن ينشر تعاليم القرآن من ناحية أخرى

كل ذلك جرى عليه الرسول قبل أن يلجأ إلى السيق لقهر أعدائه في السياسة والدين كما سيجئ بيانه...

ولعل للقصة التي ننقلها عن ابن إسحاق في السيرة مغرى نعرف به شيئا في سياسة الرسول بعد هجرته إلى يثرب : قال ابن اسحاق ومرشاس ابن قيس وكان شيخا قد عسى، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم... فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار فأمر فتى شابا من يهود كان معه فقال اعمد إليهم فأجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي وأبو أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمر بن النعمان البياضي فقتلا جميعا.. ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الرّكب أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحرث من الأوس وجبار ابن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه إن شئتم رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعا وقالوا قد فعلنا موعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة

السلاح السلاح فخرجوا إليها فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضها ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين

وقد استغرق ما جاء في هذه المعاهدة عن اليهود أكثر من نصفها مما يدل على أن الرسول كان يحسب حسابا غير قليل لنفوذ اليهود وسلاحهم

ولكن الذي يتأمل في هذه الصحيفة يعجب إذ لا يجد للبطون الكبيرة من الأوس والخزرج وبني قينقاع ذكرا فيها فكيف أمكن أن يعقد النبي عهودا مع البطون الصغيرة من اليهود دون الكبيرة منها

وللمستشرقين في هذه الظاهرة رأيان : الأول : إن هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة لأنها كانت منتشرة بين البطون العربية ومتداخلة فيها ومعدودة من مواليها حتى لا يمكن أن يعتبر لها وجود خاص

والثاني : إن هذه المعاهدة كانت تشتمل على البطون اليهودية الكبيرة أيضا من بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع ولكن مؤرخي العرب المتأخرين حذفوا أسماءها من المعاهدة فيما بعد لأنه ساءهم أن يذكر فيها أن الرسول تعاقد مع بطون خالفته وقاومته مقاومة عنيفة انتهت بسفك الدماء

ويؤيد الرأي الأخير أن المؤرخين لم يذكروا البطون الصغيرة التي تعاقدت مع الرسول ضمن من اعتدوا على الأنصار وحاربوهم

ومن المحتمل أن ما جاء في الصحيفة عن يهود الأوس كان شاملا بني النضير أيضا

وعلى كل حال فليس من شك في أن النبي قد عقد العقود والعهود مع العرب

واليهود بعد حضوره إلى يثرب فعلى ذلك أميل إلى الاعتقاد بأنها كانت أكثر من معاهدة واحدة لأننا نجد الرسول يغضب من بني النضير لأنهم لم يشتركوا في يوم أحد في حين أنه لم يطلب من بني قريظة أن يشتركوا معه في حرب المشركين

ومن جهة أخرى فإن عقد معاهدات كثيرة مع بطون كثيرة قد يكون في مصلحة الرسول أكثر من عقد معاهدة واحدة تضم جميع البطون لأن المعاهدات الكثيرة تقسم قوة البطون وتضعفها من الوجهة السياسية والحربية بينما يكون الاعتداء على بطن ن البطون المجتمعة في معاهدة واحدة كأنه اعتداء على جميعها

وقد نرى الرسول يحارب بطنا من البطون دون أن تتحرك البطون الأخرى وكأن الحرب التي تقع بين المسلمين والبطن من بطون اليهود لم تمس صحيفتها ولم تنقض شروطها. ولنا عودة لهذا الموضوع فيما بعد

وقد عقد الرسول معاهدة كانت خاصة ببني قريظة، أما روح هذه المعاهدات فملائم كل الملاءمة للحالة التي كان عليها المسلمون واليهود في الفترة الأولى بعد مجئ النبي إلى يثرب...

لقد قلنا أن الرسول قد أراد أن يؤلف بين القلوب فأحل للمسلمين أكل ما أحل لليهود أكله وأحل لهم التزوج مع بناتهم " اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان "

كذلك أمر المسلمين أن يصوموا بعض أيام كان اليهود يصومونها ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطم الأصنام ويقضي على العقائد الوثنية لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة لأن العقلية اليهودية لا تلين أمام شئ يزحزحها

عن دينها وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني اسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد أن ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد انقضى عهد بعث الرسول وظهور الأنبياء سواء كانوا من بني اسرائيل أو من غيرهم كما يعتقد المسلمون أنه لن يبعث نبي بعد الرسول مُحَمَّد

هذه العقيدة يجب أن لا تغرب عن الأذهان لأنها أساس كل ما حدث بين اليهود وبين الرسول من خلاف ونزاع ولولا وجودها لما حدث شئ من الخلاف أو لكان في الإمكان أن يتلافى ما قد ينشأ من ذلك

ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم أهملوا هذه النقطة الجوهرية في بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول واليهود مع أنه مما لا شك فيه أنه إذا أهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع

وبدأ النزاع بين النبي واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين فكان احبار اليهود يوجهون الأسئلة إلى رسول الله ويصلون فيها إلى حد التعنت فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه

وكانوا يطالبون النبي بأن يأتي إليهم بالمعجزات " الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان.... تأكله النار....

" يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء.....

ثم انتقلت المناقشة إلى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم

" ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (سورة البقرة آية ٨٩)

ثم ظهرت العداوة فأخذ النبي يطعن في يهود يثرب وأخذ اليهود يرمون الأنصار

بقوارص الكلم فنزلت الآيات الكثيرة مشيرة إلى فتور الأحوال بين الرسول واليهود " أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين "

" الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون "

وهكذا اشتد النفور حتى كانت المخاصمات تقع بين اليهود والأنصار في الشوارع يترامون فيها بالألفاظ القبيحة وينتضلون كما نعلم من حديث للبخاري أنه استبَ رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذي اصطفى مُحَمَّدا على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي إلى النبي بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبي المسلم فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبي لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطن جانب العرش فلا أدري كان فيمن صعق قبلي أو كان ممن استثنى الله...

ونزل كثير من الآيات في ذلك الحين متضمنة الطعن المر في اليهود منها " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا " ومنها : بئسما اشتروا به أنفسهم بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين (سورة البقرة آية ٩٠) " ومنها مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين "

وأخذ القرآن يذكر بما ارتكبه أجدادهم من الجرائم كعصيانهم لموسى وقتلهم أنبياء بني إسرائيل وسجودهم للعجل...

ولكن كل هذا لم يضعف من عزيمة اليهود فاستمروا على مناقشة الرسول ومخاصمة الأنصار إلى أن حذر التنزيل المسلمين من المجادلة الدينية

" قد نزل عليكم أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم

حتى يخوضوا في حديث غيره

فنجم من ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد يوم وشعر النبي بأنه لم يوفق إلى النجاح في تحقيق الفكرة التي كان يرمي إليها من التأليف بين قلوب اليهود والعرب وإيجاد أمة مؤلفة من جميع عناصر يثرب

وهكذا لم يمض ثمانية عشر شهرا من قدوم النبي إلى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالحذر والنفور من الفريق الآخر وكذلك طرأت تغييرات دينية وظهر ما يسمى في عرف القرآن الكريم بالنسخ " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أ مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير "

وتحولت قبلة الصلاة إلى الكعبة بعد أن كانت متجهة نحو بيت المقدس " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام.. وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون... " ويحدثنا ابن هشام عن هذا الموضوع فيقول :

ولما صرفت القبلة من الشام إلى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرا (قبيل يوم بدر) من مقدم رسول الله إلى المدينة أتى رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف من اليهود إلى النبي فقالوا يا مُحَّد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك

وكان هناك طائفة معتدلة من اليهود أرادت أن تصلح بين الفريقين المتخاصمين وتزيل ما بينهما من أسباب النزاع ولكنها أخفقت في مسعاها لأن السيل كان قد بلغ الزبى فأوجست هذه الطائفة خيفة من استمرار العداء وتوقعت شرا مستطيرا مما يضمره كل من الفريقين للآخر من الحقد والبغضاء وكان مخيريق اليهودي رفيق الرسول من أنصار هذه الطائفة وقد حار في كيفية معالجة المشكلة التي صارت أعقد

وكان هناك عنصر آخر لعب دورا خطيرا في الحوادث اليثربية وهو العنصر الذي يضم أعداء اليهود السياسيين من بني الخزرج فقد كانوا أشد الأقوام خصومة لليهود ولم يكونوا مخلصين للرسول فكان همهم منحصرا في أن يصبوا الزيت ليزيدوا في إشعال نار العداوة بين الرسول وبين اليهود وقد عرف بعضهم عند المسلمين باسم المنافقين وكان عبدالله بن أبي من زعماء هؤلاء المنافقين

وقد استمرت هذه الأزمة الشديدة إلى يوم واقعة بدر الكبرى

ويظهر أن اليهود كانوا يرجون أن يضجر الرسول من عنادهم وحملهم على قبول دين جديد فيكتفي بنشر دعوته الدينية بين القبائل العربية ونستنتج ذلك من أنهم لم يكونوا يرغبون في محاربة الأنصار مع أن يوم بدر كان فرصة مناسبة لمن كان في مركزهم

وكان النبي لا يريد أن يحارب اليهود في تلك الظروف التي لم تكن ملائمة بل كان يؤجل الدخول معهم في حرب حتى تتحسن الأحوال وتكون أكثر ملاءمة وفي الواقع كان اليهود يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاصمات لأن السلام والسكينة أساس النجاح في الأعمال التجارية والصناعية

ويميل بعض المستشرقين إلى الرأي القائل بأن الحالة كادت ترجع بين اليهود والمسلمين إلى ما كانت عليه قبل اشتداد النفور والخصومة من الألفة والولاء لولا أن حدثت موقعة بدر الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة التي انتصر فيها المسلمون انتصارا مبينا على قريش فقد أصبح المسلمون بعد هذا الظفر العظيم أصحاب الأمر والنهي في مدينة يثرب وشرعوا يأخذون بالثأر من الأفراد والجماعات التي أساءت إليهم وطعنت في أعراضهم ولم يشترك اليهود مع الرسول في محاربة قريش يوم بدر لأنه لم يكن مشترطا عليهم في المعاهدة أن يشتركوا في الغزوات الخارجية عن دائرة المنطقة اليثربية وكذلك كان عدد الأوس والخزرج في هذه المعركة قليلا وكان

أغلب المحاربين من المهاجرين

كان النبي في أول الأمر يرجو أن يدخل اليهود في الإسلام بطريق المجادلة والمناقشة فلما لم تنجح معهم هذه الطريقة صبر عليهم إلى يوم بدر حيث صارت الظروف ملائمة للدخول معهم في حرب دموية

لذلك ظهرت عند الأنصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية حيث صمموا على أحد أمرين أن يندمج اليهود مع العرب بواسطة اعتناق الإسلام أو يحاربوهم حتى يجلوهم

وكان المهاجرون ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود في يثرب لأن حالتهم كانت سيئة جدا إذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج

وكان أعداء اليهود من الخزرج يشجعون النبي على الشروع في محاربة اليهود كما وضحنا ذلك من قبل

ويحدثنا ابن هشام عن هذه الأحوال فيقول أنه بعد مرور بضعة أيام من موقعة بدر جاء الرسول إلى حي بني قينقاع وجمعهم بسوقهم ثم قال " يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم

وإني لأعتقد أن لأصرار النبي على دخول اليهود في الإسلام سببا آخر فوق الأسباب التي ذكرتها وهو أن دخول أهل الكتاب في الإسلام يزيد في هيبته ويكبر شأنه في نظر قريش ذات المجد التليد وتدخل الجماعات الكثيرة في الإسلام بدون مقاومة

أما الأسباب التي حملت النبي على البدء بمحاربة بني قينقاع من بين جميع اليهود فترجع إلى أن بني قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة في حي واحد من أحياء الأقوام العربية فأراد النبي أن يطهر المدينة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من

يخالفون دينه

وغني عن البيان أن بني قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب فكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة والحلي الكثيرة من الفضة والذهب وكان العرب يطمعون في كل ذلك

ثم كان عدد بني قينقاع غير كثير فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال شأفتهم

وفوق كل هذا فقد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود سببا أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم بعاث وقد أثخن بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع ومزقوهم كل ممزق مع أنهم دفعوا الفدية عن كل من وقع في أيديهم من اليهود وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم بعاث حتى وقعت الحرب بين الأنصار وبين بني قينقاع فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الأنصار

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله " وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم...

فيظهر من هذه الآية مقدار ما كان بين بني قينقاع وبين بني النضير وقريظة من العداوة والبغضاء ويظهر أيضا أن بني قينقاع كانوا أصحاب مزارع فأخرجهم أبناء جلدتهم منها أرغموهم على الالتجاء إلى حي واحد في داخل المدينة

على أن هناك عاملا آخر ذا قيمة كبيرة في حمل الرسول على البدء بمحاربة بني قينقاع وهو أن بني قينقاع كانوا من موالي بني الخزرج وكانت أغلب بطون بني الخزرج قد دخلت في الإسلام ما عدا بطن عبدالله بن أبي فقد كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر وكانت بطون بني الخزرج توافق على مشروعات النبي بدون معارضة

* * *

ننتقل من هذا إلى ما رد به بنو قينقاع على أقوال النبي إذ أجابوا بكل جرأة وتبجح " يا مُحَّد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن القوم

ويظهر من هذا الرد أن بني قينقاع كانت تعتمد على معاضدة حلفائهم من الخزرج في نزاعهم مع الرسول قبل كل شئ إذ لا يتصور أن بطنا صغيرا كبطن بني قينقاع يجرؤ على إعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ولكن بني الخزرج خذلوهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم أنهم من مواليهم

" وحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبدالله بن أبي فقال يا مُحَّد أحسن إلى موالي وكانوا حلفاء الخزرج فأبطأ عليه الرسول فقال يا مُحَّد أحسن إلى موالي فأعرض عنه النبي فأدخل عبدالله يده في جيب درع الرسول فقال له الرسول أرسلني وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا قال ويحك أرسلني قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوا من الاحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة إني والله امرؤ أخشى الدوائر فقال الرسول هم لك... وكان محاصرا إياهم خمس عشرة ليلة... ثم أجلاهم الرسول من المدينة فخرجوا منها إلى اذرعات بالشام "

ويحدثنا الواقدي أن الرسول أمر بجمع أموالهم وأسلحتهم ثم قسمها على الأنصار بعد أن حجز منها الخمس وأبقى لبني قينقاع ذراريهم ونساءهم وأمهلهم ثلاثة أيام ولما رحل بنو قينقاع من يثرب نزلوا بوادي القرى حيث احتفى بهم اخوانهم من اليهود فأقاموا عندهم على الرحب والسعة إلى أن رحلوا نهائيا إلى الشام

وفي ابن هشام قصة يذكرها على أنها تتضمن السبب في إعلان المسلمين الحرب على بني قينقاع إلا أن المستشرقين لاحظوا أنه لم يروها عن ابن اسحق الذي هو المرجع الثقة لابن هشام ثم هي ليست موجودة في كتاب الواقدي لذلك هم يعتبرونها قصة متأخرة وغير واقعية " وفحواها أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ بسوق بني

قينقاع فجعل بعض اليهود يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى طوقها فلما انكشفت سوأتها ضحكوا منها فوقع الشر بين الأنصار وبين بني قينقاع

وقد أشار القرآن إلى حادثة إجلاء بني قينقاع عن المدينة بقوله : " قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار

* * *

يظهر أن أمر إجلاء بني قينقاع كان له وقع عظيم في نفوس اليهود فقد امتنعوا بعد ذلك عن المجادلة الدينية وكفوا عن رمي المسلمين بقوارص الكلم ودخلت هيبة المسلمين في قلوب البطون العربية التي لم تكن دخلت في الإسلام فانفسح المجال أمام النبي لشر دعوته

ثم جاء يوم أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة " فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ومعه عمرو بن العاص وغيره من الزعماء فأقبلوا حتى نزلوا بحنين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة " ثم خرج إليهم رسول الله في ألف من أصحابه حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبدالله بن أبي بثلث الناس وقال علام نقتل أنفسنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل الريب والنفاق

ولم يشترك أحد من اليهود في واقعة أحد إلا رجل اسمه مخيريق " كان رجلا غنيا كثير النخيل وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد في علمه وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد

وقد كانت موقعة أحد في يوم سبت فأبى اليهود أن يحملوا السلام في ذلك اليوم

ورفضوا الاشتراك مع الرسول في غزوة أحد معتمدين على أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيدا عن المدينة كما ذكرنا سابقا

ولكن مخيريق اليهودي قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته وقال إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا إلى رسول الله فقاتل معه حتى قتل فقال الرسول مخيريق خير اليهود

وفي ابن هشام زعم منسوب لغير ابن اسحاق ملخصه أن الأنصار سألوا النبي يوم أحد : ألا تستعين بحلفائنا من اليهود فقال لا حاجة لنا فيهم

غير أن المستشرقين يرتابون في صحة هذا الحديث كما هو شأنهم في كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن اسحق ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضب من اليهود بسبب عدم اشتراكهم معه في يوم أحد واتخذ من امتناعهم عن ذلك سببا لأعلانه الحرب على بني النضير كم سنبين ذلك فيما بعد

ويؤيد صدق نظر المستشرقين في هذا الزعم ما نقلناه عن ابن هشام نفسه من ثناء الرسول على مخيريق وقوله مخيريق خير اليهود فإنه لم يقل ذلك إلا لأن مخيريقا لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود

ولصاحب الطبقات الكبرى رواية تفيد أن النبي بعد أن خرج بجيوش المسلمين إلى أحد حتى إذا كان بالشيخين وهما أطمان التفت فنظر إلى كتيبة خشاء لها زجل فقال : ما هذه قالوا : حلفاء بن أبي من يهود فقال رسول الله : لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك....

أما نحن فنغض الطرف عن هذه الرواية لأنها تناقض ما قصصنا عن ابن اسحق. على أن الذي يمعن نظره في الحالة التي كان عليها اليهود بعد إجلاء بني قينقاع عن المدينة يتضح له جليا أنه لم يبق لعبد الله بن أبي موال من اليهود إذ كان بنو النضير وقريظة من ألد أعدائه كما مر ذلك في عدة مواضع...

ودخلت الأشهر الحرم بعد يوم أحد فلم يحصل فيها نضال ولا قتال ثم اتجه النبي لمحاربة بني النضير

وهنا نقطة خلاف هامة بين ابن هشام وبين اليعقوبي فابن هشام يقول ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد خروج بني قينقاع من المدينة أي في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة ويذكر ابن هشام أنه بعد قتل ابن الأشرف قال الرسول " من ظفرتم به من اليهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على بن سنينة رجل من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول : أي عدو الله أفقتلته أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ! قال محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك...

ولكن اليعقوبي يقول إن النبي أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد أي قبيل محاصرته لبني النضير أي في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة وكان قتله بمثابة إعلان الحرب عليهم لأنه كان زعيما من زعمائهم وكان قاتله أو نائلة أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة ومعه أربعة من الأنصار

ويقول العالم **Leszynsk** إن العلاقات بين الرسول وبين بني النضير كانت على ما يرام قبل يوم أحد فلو ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد إجلاء بني قينقاع أي قبل واقعة أحد لما أمكن أن تكون هناك علاقات حسنة بين الرسول وبين بني النضير لأن كعب بن الأشرف كان من زعماء بني النضير وفوق ذلك فقد كان الرسول محتاجا إلى معاضدتهم قبل يوم أحد

وإني أميل إلى رأي اليعقوبي وأعتبره تصحيحا هاما لحادثة تاريخية كبيرة إذ لا يتصور أن الرسول يحرض انصاره على قتل أفلاد من اليهود قبل يوم أحد وليس هناك أي دليل على أن العداوة وجدت بين الأنصار وبين بني النضير إلا قبيل محاضرة الانصار لآطام بني النضير حيث كان اليهود يوجسون خيفة من أعمال الإرهاب التي

كان الانصار يقومون بها

ويرتاب المستشرقون فيما يقوله ابن هشام من أن سبب قتل كعب إنما هو قصيدة الرثاء التي رثى بها قتلى بدر الكبرى وارتياب المستشرقين في هذا مترتب على ارتيابهم فيما قاله ابن هشام عن وقت قتل كعب ويقولون أنه أعوزه المبرر لاغتيال كعب في الوقت الذي ذكره فزعم أنه قصيدة الرثاء لقتلى بدر وأنه التشبيب بنساء المسلمين

ويحدثنا البخاري أن كعب بن الأشرف قد آذى الله ورسوله فأتاه مُحَمَّد بن مسلمة فقال أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين قال أترهنوني نساءكم قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنوني أبناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك السلاح قال سيفان يعني السلام فوعده أن يأتيه فقتلوه ثم أتوا النبي فأخبروه

ولصاحب الأغاني قصيدة ينسبها للربيع بن أبي الحقيق تلائم الحالة التي كان عليها بنو النضير بعد قتل كعب ابن الأشرف:

ألا يا لقـومي لا أرى الـنجم طالعـا ... ولا الشـــمس إلا حـــاجبي بيميـــني

معـــذبتي خلـــف القفـــا بعمودهـــا ... فجـــل نكـــيري أن أقـــول ذريـــني

أمـــين علـــى أســـرارهن وقـــد أرى ... أكـــون علـــى الأســـرار غـــير أمـــين

فللمـــوت خـــير مـــن حـــراج موطـــأ ... مـــع الطعـــن لا يأتي المحـــل لحـــين

أنذر النبي بني النضير بأن يخرجوا من أطامهم وينزحوا من يثرب في مدة عشرة أيام ولكنهم رفضوا الأذعان لهذا الإنذار

* * *

وكان إنذار الرسول لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في واقعة أحد وكأن الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة إلى مدينة يثرب فكان على بني النضير

أن يخرجوا للقاء العدو كما تقضي شروط المعاهدة

ثم يظهر أن بني قريطة كانوا مرتبطين بعهد آخر غير عهد بني النضير وأن الشروط كانت غير شروط عهد بني النضير إذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في واقعة أحد كما طالب بني النضير ولم يثأر منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثأر من بني النضير

وليس معقولا أن يغضب الرسول من بني النضير لعدم خروجهم إلى الوغي في واقعة أحد دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها

ويعتقد العالم **Leszynsky** أن ما جاء في الحديث من أن يوم السبت يوم عبوس وغدر يرجع إلى اعتذار بني النضير الممقوت وأن جميع الأحاديث التي من هذا النوع ترجع إلى حادثة تاريخية ومن هنا نفهم أن غضب الرسول من اعتذار بني النضير قد ترك في نفسه أثرا سيئا من نحو يوم السبت بوجه عام

ويقول الاستاذ النجار ان هذا القول ليس حدثنا وإنما هو من كلام الناس على أن بعضا يتشاءم به كما أن بعض الناس يتيمن به ويتشاءم بغيره وليس ذلك من الحديث في شئ...... اهـ

ويذكر مؤرخو العرب سببا آخر لإعلان الحرب على بني النضير غير امتناع اليهود عن الاشتراك في يوم أحد واعتذارهم بيوم السبت فيقول ابن هشام : إن الرسول خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمة الغمري للجوار الذي كان رسول الله عقده لهما فلما أتاها رسول الله يستعينهم قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لم تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – والرسول إلى جنب جدار من بيوتهم قاعدا – فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك عمر بن جحاش أحدهم فقال أن لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة فأتى رسول الله من السماء الخبر بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة فلما استلبث النبي أصحابه قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت

اليهود أرادت من الغدو به فأمر النبي بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم....

لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبهم بعدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد إجلاء بني النضير

على أننا لو سلمنا بصحة هذه الرواية فإننا لا نجدها كافية لإشهار الحرب على جميع بطون بني النضير إذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود ان كل جرم من جهة فرد أو عدة أفراد يقع عقابه على فاعليه وأهل بينهم دون أن يمس غيرهم بشئ من الأذى

والذي يظهر لكل ذي عينين أن بني النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره

ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدرا لما كانت هناك ضرورة لإلقاء الصخرة عليه من فوق الحائط بل كان في استطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحادثهم إذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه

وقد أراد بنو النضير أن يذعنوا لحكم الرسول ويجلوا عن يثرب ولكن " رهطا من بني عوف بن الخزرج منهم عبدالله بن أبي وديعة بن مالك وسويد وداعي قد بعثوا إلى بني النضير أن البثوا وتمتعوا فإنا لن نسلمكم إن قتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا

وقد طلب بنو النضير من بني قريظة أن ينجدوهم فلم يفعلوا وصرح كعب ابن أسد زعيم بني قريظة أنه لا يريد أن ينقض حلفه مع الأنصار

ويشير القرآن إلى غدر عبدالله وقومه بيهود بني النضير بقوله " ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنكم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون...

وكانت آطام بني النضير حصينة جدا وكان من المحال فتحها في مدة وجيرة " لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.. لذلك أمر الرسول بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه ان يا مُحَمَّد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها....

ويظهر أن قطع النخل وتحريقه كان سببا في تسرب اليأس في قلوب اليهود إذ وجدوا أنفسهم بين أمرين إما الأذعان لحكم الرسول وإما الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق النخيل وكانت ثمارها من أهم مرافق الحياة فاختاروا الاذعان لحكم الرسول وكان ذلك رأي سلام بن مشكم " فسأل الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم على ان لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام بإذرعات فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها

وقبل أن ينزح بنو النضير من منازلهم هدموا البيوت عن نجاف بابهم فوضعوها على ظهر البعير وانطلقوا بها وكانت هذه الرواية المبهمة سببا في أن يقول بعض المستشرقي ان الأخشاب كانت غالية في الأقاليم الصحراوية فأخذها اليهود معهم ليبيعوها ولكننا لا نميل إلى تفسير ذلك على هذا المنوال بل أقول ان هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهي أن كل يهودي يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني اسرائيل أن يحتفظوا بالإيمان بآله واحد ولا يبدلوه ولو عذبوا وقتلوا فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود إلى يومنا هذا ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يصنعون تلك الصحيفة (מזוזה) في داخل النجاف خوفا من اتلاف الهواء أو مس الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها

ويقول القرآن بصدد إجلاء بني النضير " هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من

الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الألباب

ويصف ابن هشام خروجهم من آطامهم بقوله " إنه حدث أنهم انتقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم...

ويقول الواقدي إن النساء تحلين بحليهن وتزين أحسن زينة حتى بدت الواحدة منهن غاية في الجمال وكان يبدو عليهن السرور والابتهاج بدرجة أدهشت المسلمين وأما منافقو المدينة فقد نكسوا رؤسهم بعد ذلك حتى قال عبدالله بن أبي أنه قد أصبح يشعر بأنه صار رجلا أجنبيا في وطنه غريبا عن بلاده بعد إجلاء بني النضير

وقد غنم الأنصار بقية الأمتعة التي لم يستطع بنو النضير حملها معهم وكان منها ٥٠ درعا و ٣٤٠ سيفا

وقد كانت هذه المغانم لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أن سهل بن حنيف وأبان دجانة ذكرا فأعطاهما الرسول ويذكر القرآن هذه المغانم " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون

ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فاحرزاها

وقد قيل بمناسبة إجلاء بني النضير شعر كثير بعضه مدح وبعضه ذم وأهم ما يلفت نظرنا من ذلك الشعر قصيدة قالها عباس بن مرداس يذكر جلاء بني النضير ويبكيهم:

لـو أن قطـين الـدار لم يتحملـوا   وجـدت خـلال الـدار ملهـى وملعبـا

فإنـك عمـري هـل رأيـت ظعائنـا   سـلكن علـى ركـن الشـطا فتيـأبا

إذا جـاء باغـي الخـير قلـن بشاشـة   لـه بوجـوه كالـدنانير مرحبـا

فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم		سلام ولا مولى حيي بن أخطبا

فقال خوات لعباس بن مرداس أأنت الذي رثيت اليهود وقد كان منهم في عداوة الله ما كان فقال عباس إنهم كانوا أخلائي في الجاهلة وكانوا قوما أنزل بهم فيكرمونني ومثلي يشكر ما صنع إليه من الجميل ثم أنشد:

هجوت صنيع الكاهنين وفيكم		لهم نعم كانت من الدهر ترتبا

أولئك أحرى إن بكيت عليهم		وقومك لو أدوا من الحق موجبا

من الشكر إن الشكر خير مغبة		وأوفق فعلا للذي كان أصوبا

فصرت كمن أمسى يقطع رأسه		ليبلغ عزا كان فيه مركبا

فبك بني هارون واذكر فعالهم		وقتلهم للجوع إذ كان مسغبا

أخوات أذر الدمع بالدمع وابكهم		وأعرض عن المكروه منهم ونكبا

فإنك لو لاقيتهم في ديارهم		لالفيت عما قد تقول منكبا

صراع إلى العليا كرام لدى الوغى		يقال لباغي الخير أهلا ومرحبا

الباب السابع

غزوة بني قريظة

تحريض زعماء بني النضير لبني قريش وغطفان على محاربة المسلمين – انحياز زعماء بني النضير إلى بني قريش الوثنيين – هل تعتبر هذه المحالفة عملا مخالفا لأوامر التوراة ؟ – احتجاج القرآن على هذه المحالفة – يوم الأحزاب – مطامع قريش وغطفان واليهود من وراء هذه الغزوة – تحريض حي بن أخطب لبني قريظة على نقض معاهدتهم مع الرسول – محالفة سرية بين الرسول وبين غطفان – فشل يوم الأحزاب وأسبابه – حصار الرسول لبني قريظة – نزول بني قريظة على حكم الرسول – اشتقاق الأوس على حلفائم بني قريظة – تنفيذ حكم الإعدام في رجال بني قريظة – نتيجة غزوة بني قريظة –كثرة شعر العرب في يوم الأحزاب وبني قريظة

لما نزل أشراف بني النضير في خيبر أخذوا يفكرون في التأر من الأنصار وجعلوا يفكرون في الوسائل التي توصلهم إلى آطامهم وتردهم إلى مزارعهم في منطقة يثرب فعزم نفر من اليهود فيهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع أن يحزبوا الأحزاب على المسلمين " فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا إنا سنكون معكم حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومُحَمَّد أفديننا خير أم دينه قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه...

ومن ينظر إلى حالة بني النضير التعسة التي صاروا عليها بعد إجلائهم عن بلاد سكنوها منذ قرون وكانوا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لا يوجه إليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع إلى أرضهم وبحثهم عن الأنصار والحلفاء الذين يعينونهم على تحقيق أملهم والثأر من خصومهم فإن هذه سجية من السجايا البشرية وطبيعة من الطبائع الإنسانية بل وعمل مشروع مقبول لدى جميع الأمم

لكن الذي يلامون عليه بحق والذي يؤلم كل مؤمن بآله واحد من اليهود والمسلمين على السواء إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية

نعم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والاكاذيب والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بآله واحد في عصور شتى من الادوار التاريخية كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين

هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة

وقد أشار القرآن إلى عمل النفر من اليهود وتحزبهم مع قريش وغطفان على الإسلام بقوله " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت

ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا

ثم أقبلت جموع قريش في شوال سنة خمس ونزلت بمجتمع الاسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره الخندق بينه وبين القوم..

وقد أخذ المسلمون آلاف الحفر من مساح وكرازين ومكاتل من بني قريظة الذين بقوا على الولاء ولم ينقضوا عهدهم فحفروا بها الخندق حول المدينة

ويعتقد المستشرقون أن مؤرخي العرب قد بالغوا في إخبار يوم الخندق وأدخلوا فيها الأساطير التي تسد على الباحث سبيل استخلاص الصحيح من الحوادث.

وكان للأحزاب في يوم الخندق قوة عظيمة لا تقل عن ١٠٠٠٠ مقاتل وكانوا مسلحين بافخز الأسلحة وكانت لديهم الخيول الكثيرة فإن استعدادهم كان كاملا من الوجهة المادية ولكنه كان ناقصا نقصا كبيرا من الوجهة المعنوية إذ لم تكن لهم غاية مشتركة تجمع بين قلوبهم وتحملهم على الإخلاص في أعمال الحرب

فقد كان السبب في اشتراك غطفان في هذه الحرب أن اليهود وعدوهم بأن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع وحدائق خيبر إذا تم لهم النصر وكانت قريش تريد من مواصلة القتال أن تثأر لقتلى بدر وأحد

وهناك سبب آخر لم يذكره المؤرخون من العرب والإفرنج وهو أن قريشا رأت أن وجود قوة معادية لأهل مكة في شمال الحجار ضاربهم ومؤد إلى كساد تجارة مكة فكأنهم قد اضطروا إلى الحرب اضطرارا ليتمكنوا من أن يفتحوا لتجارتهم طريق القوافل إلى الشام

وقد دخل أبو سفيان نفر من زعماء قريش بين استار الكعبة حتى التصقت أكبادهم بها وأقسموا ليواصلن القتال حتى لا يبقى فيهم رمق من الحياة

وأما اليهود فقد كان رائدهم غير الذي كان لحلفائهم من بني قريش وغطفان كما ذكرنا قبلا

وقد كان هناك عامل آخر أضعف من قوة هذا الجيش العظي ونقص من هيبته ذلك أنه لم يكن موحد القيادة فلم يكن الأمر كله فيه بيد أبي سفيان قائد قريش لذلك سرعان ما ظهر الخلاف في الرأي والعمل بين قواد الجيوش

وبعد أن مضت بضعة أيام غير كثيرة تبادل فيها الفريقان المناوشات والمبارزات اتضح لزعماء الأحزاب أن الحرب قد لا تنتهي إلا إذا انضم بنو قريظة إليهم فقد كان بقاؤهم على الولاء للمسلمين من جهة وعدم إمكان جيوش الأحزاب أن تتعرض لهم من جهة أخرى مما يزيد في قوة المحصورين الذين كانوا يأخذون منهم المؤن والسلاح وآلات الحفر وكانت آطامهم بي جيوش المسلمين والاحزاب بمثابة السور الذي لا يخترق

لذلك أخذ حيي بن أخطب صاحب مشروع يوم الخندق يؤثر في أبناء جلدته من بني قريظة ويحرضهم على نقض المعاهدة التي كانت بين كعب بن أسد والرسول ويقول له " قد جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال........ فلم يفلح في أول الأمر لأن الزعيم القرظي أبى أن ينقض صحيفته مع الأنصار وقال يا حيي بن أخطب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شئ ويحك فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من مُحَمَّد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتل له في الذروة والغارب حتى سمح بما طلب وأعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا مُحَمَّد أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين الرسول...

وقد أرهب هذا العمل المسلمين لأنهم علموا ما يحتمل أن ينجم من انضمام بني قريظة إلى الاعداء واقتراب جيوش الأحزاب إلى يثرب وقد عظم البلاء واشتد الخوف

حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق بين بعض المنافقين حتى قال أحدهم كان مُحَمَّد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.... ولما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله بعض رجاله إلى قائدي غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب....

وقد كان هذا الاتفاق بمثابة الهزيمة التامة لجيوش الأحزاب إذ أخذ القواد بعده يتناولون الدسائس وأخذت كل فئة تضمر الشر للأخرى ثم فسد الامر بين الأحزاب وبين بني قريظة حيث شعر بنو قريظة أن تغييرا أخذ يطرأ على الحالة فطلبوا من حلفائهم رهائن من الناس وأخذ بنو قريش وغطفان يلومون بني قريظة ويقولون لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز مُحَمَّدا فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم مُحَمَّدا فإننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تنتشروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك فأرسلوا لنا الرهائن حتى نطمئن وأما بنو قريش وغطفان فقالوا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإذا كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فأبى عليكم بنو قريظة

وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.... ثم تهيأت قريش وغطفان للرحيل فانشمرت راجعة إلى بلادها...

وقد وافق المستشرقون على معظم أخبار الخندق التي سردناها إلى هنا وأما الذي لا يوافقون عليه فهو ما جاء في المراجع العربية من أنه بعد أن كتبت المعاهدة بين المسلمين وبين قائدي غطفان تناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا....

لأن ذلك قد يناقض الواقع إذ دب روح الشقاق بين الأحزاب بعد إثبات هذه الصحيفة بين الرسول وبين غطفان لا قبلها

على أن غطفان لم تشترك في القتال إلا طمعا في ثمار خيبر وقد علم الرسول ذلك حق العلم فوعد غطفان ما وعد وفضلت غطفان ما وعدها به الرسول على ما اتفقت مع اليهود عليه وإن كان أقل إذ كان ثلث ثمار المدينة لأنها رأت أنها ستوز بهذه المنحة دون أن تسفك قطرة واحدة من دمائها

ويلاحظ العالم **Leszynsky** أن وراية تناول سعد بن معاذ للصحيفة وتمزيقه أياها تشبه ما يقال عن الرومان أثنار حصار جيوش الغلواة لمدينة روما إذ حدث أنه بعد أن تعهد المحصورون بأن يدفعوا غرامة مالية للجيوش المتوحشة تقدم بطل من أبطال روما فتناول المعاهدة ومزقها قائلا : إن روما لا تشتري استقلالها بالدراهم وإني سأغسل عن وطني هذا العار.... ولكن روما دفعت الغرامة وعادت جيوش الغلواة إلى وطنها...

وهناك سؤال يتردد في نفس الباحث وهو لماذا لم يطلب بنو قريظة من قريش وغطفان رهن الرجال قبل تلك الصحيفة لكن يظهر أن قريشا لم تدرك أن الشر إنما جاء من ناحية غطفان لأن الصحيفة كانت من قبيل المعاهدات السرية التي تعقد بين الدول في الوقت الحاضر

ومهما يكن من شئ فقد تخلص المسلمون من خطر جسيم كان يهدد كيان نهضتهم وينذر بسقوط يثرب

وقد نتج من انضمام بني قريظة إلى جيوش الأحزاب ونقضهم المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي أن الرسول لم يمهل عليهم بعد تخلصه من جيوش الأحزاب بل بدأ يحاصرهم في نفس اليوم الذي أخذت فيه قريش وغطفان تنجلي عن المدينة حتى أنه أمر من كان معه سامعا مطيعا ألا يصلوا العصر إلا ببني قريظة

ولم يقدر حيي بن أخطب الذي كان سببا في نقض المعاهدة بين بني قريظة وبين المسلمين بما كان قد عاهد عليه كعب بن أسد بل وفى بعهده وانضم إلى أبناء جلدته ودخل معهم الحصن حيث استمروا محصورين خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم

الحصار

ولسنا نعلم إذا كان قد حدثت مناوشات بين الفريقين أثناء هذه المدة أم لم تحدث

لكن يظهر أن بني قريظة كانوا يميلون إلى الهدوء والسلم لأنهم كانوا رجال فلاحة وزراعة فلم يكونوا في القوة والبطش والحماس الحربي بالدرجة التي كان عليها بنو قينقاع وبنو النضير ومما يؤيد ذلك أن بني النضير كانوا يدفعون الدية كاملة بخلاف بني قريظة الذين كانوا يدفعون نصفها فقط

من أجل ذلك كان العرب ينظرون إلى بني قريظة بعين غير التي كانوا ينظرون بها إلى غيرهم من البطون اليهودية الأخرى

وليس معنى هذا أن بني قريظة لم تكن لديهم أية كفاءة حربية بل معناه أنهم كانوا أقل من البطون الأخرى في ذلك ومع هذا أبلوا بلاء حسنا في يوم بعاث وأبدوا من الشجاعة وقوة العزيمة ما يستحق الاحترام وأيضا فإنهم قد منعوا حصنهم خمسا وعشرين ليلة ولم ينزلوا إلا حين أيقنوا بالهلاك

على أن الواقدي يصرح بأنه حدث قتال بين اليهود وبين المسلمين أثناء الحصار حيث كان الفريقان يتراميان بالنبل والحجارة كما يذكر ابن هشام أن بعض الأنصار من الخزرج وبني حارثة قتلوا في هذه المقاتلة الضعيفة ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام مرة واحدة طول مدة الحصار لأن عدد المسلمين كان يربو على الآلاف بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز سبعمائة إلا قليلا

ولما أيقنوا أن مقاومة جيش الأنصار لا تفيدهم فتيلا وأنهم سوف يقعون في قبضتهم مهما طال الزمن بعثوا إلى الرسول أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا فأرسله الرسول إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم وقالوا له يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم مُحَمَّد قال نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح وقال له يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم مُحَمَّد قال نعم

وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح وقال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت رسول الله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبدا ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا..... وأقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع إلى أن أطلقه النبي

ويظهر مما جاء في كتاب الواقدي أن بني قريظة قبلت أن تنزل على حكم الرسول لأنهم اعتقدوا حق الاعتقاد أن الأنصار يعاملونهم كما عاملوا بني قينقاع والنضير وربما كان هذا هو سبب خيانة أبي لبابة إذ أشار إلى العنق تلميحا إلى الحكم الذي سينفذ في بني قريظة بعد خضوعهم

وكان بنو الأوس يعتقدون كما اعتقد بنو قريظة في نتيجة حكم الرسول فإنهم " لما أصبحوا نزل اليهود على حكم رسول الله فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت فقال الرسول ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم قالوا بلى قال فذاك إلى سعد بن معاذ.... ثم حكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء....

ولا شك أن اليهود لم يكونوا ينظرون إلى هذه الخيانة من حلفائهم بني الأوس ولا إلى غدر سعد بن معاذ بهم ولم ينجهم كما نجى عبدالله ابن أبي حلفاءه من بني قينقاع....

وكان بنو قريظة طول الليل قبل إعدامهم يقرأون في كتاب الزبور ويتناقشون في شؤون الدين الإسرائيلي حيث اتفقوا على أن ينصروه إلى آخر رمن من الحياة

أما تنفيذ حكم الإعدام في رجال بني قريظة فقد نعلم أن الرسول خرج إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق يخرج بهم

إليهم إرسالا وفيهم حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة والمكثر لهم يقول تسعمائة ولما أتى بحيي بن أخطب وعليه حلة فتاحية (ضرب من الوشى) قد شقها من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها أحد فلما نظر إلى رسول الله قال أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل ثم جلس فضربت عنقه.....

وقد اقترح كعب بن أسد زعيم بني قريظة على أبناء جلدته قبل خروجهم من آطامهم أن يعتنقوا الإسلام " فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره

هذه الجمل تدل على رسوخ الديانة في نفوس بني قريظة وأنهم ما كانوا ليعبأوا بالموت في سبيل التمسك بدينهم والمحافظة على عقائدهم

وقد قلنا إن بني قريظة أظهروا العجز في الشؤون الحربية بالنسبة للبطون الأخرى ويتضح ذلك من حديث لابن هشام إذ " قال كعب بن أسد لقومه إذا أبيتم على هذه (الدخول في الإسلام) فهلم فلنقتل أبناءنا ثم نخرج إلى مُحَمَّد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا. وبينهم فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم قال فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون مُحَمَّد وأصحابه قد آمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة قالوا نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يكن ممن كان قبلنا إلا من قد علمت فإصابه ما لم يخف عليك من المسخ قال ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما.....

وقد اشترك الأوس في قتل حلفائهم فإنه لما شرعت " الخزرج تضرب أعناقهم ويسرهم ذلك فنظر رسول الله إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم فظن أن ذلك للحلف

الذي بين الأوس وبين بني قريظة وقال ليضرب فلان وليذفف فلان....

وقد أظهر بعض اليهود في نكبتهم هذه من الشجاعة ما يستوقف النظر فمن ذلك ما حدث للزبير مع أحد الأنصار، ذلك " أن الزبير كان قد من على ثابت ابن قيس في يوم بعات أخذه فجر ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال يا عبدالرحمن هل تعرفني قال وهل يجهل مثلي مثلك قال إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي قال ان الكريم يجزي الكريم ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله فقال يا رسول الله إنه قد كانت للزبير على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله هو لك فأتاه فقال إن رسول الله قد وهب لي دمك فهو لك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة قال فأتى ثابت رسول الله فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله هب لي امرأته وولده قال هم لك قال فأتاه فقال قد وهب لي رسول الله أهلك وولدك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله فقال يا رسول الله ماله قال هو لك فأتاه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله مالك فهو لك قال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب قال قتل قال فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزال بن سموءل قال قتل قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمروا بن قريظة قال ذهبوا وقتلوا قال فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه...

وكان المسلمون لا يقتلون في غزواتهم النساء والذراري وكل من لا ينبت من الرجال لكن في هذه الغزوة قتلت امرأة واحدة وقد انطلقوا بها للقتل وعلى ثغرها علامة الحبور والابتهاج حتى قالت عائشة زوج الرسول : فوالله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل

وقد نجى في ذلك اليوم أربعة من اليهود لم يقتلوا لأنهم اعتنقوا الإسلام فأقاموا

على نسائهم وذراريهم وأملاكهم وقد نفي ثلاثة منهم في المدينة أما رابعهم فقد خرج على وجهه من يثرب ليلة إسلامه ولم يدر أحد إلى أين ذهب

ولم يكن الثلاثة الذين أسلموا من بني قريظة أو من بني النضير بل كانوا من بني هدل وهم بطن من البطون العربية التي تهودت ولم يكن عدد أفرادها المتهودين كبيرا في يثرب

ومهما يكن من شئ فقد قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في يثرب وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج منذ الساعة الأولى لمجاورتهم لهم في يثرب وقد بذلت في هذا السبيل جهودا عظيمة في فترات مختلفة ولم توفق حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم وأطماعهم السياسية في وقت كانت خامدة فيه تلك الآمال

وقد طرأ تغيير عظيم على يثرب بعد خروج اليهود منها إذ تدهورت شئونها التجارية والصناعية تدهورا شديدا ولو لم يكن بهذه المدينة ضريح الرسول ولو لم تكن عاصمة الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين لما كان ليثرب شأن يذكر بعد تلك الحوادث في الجزيرة العربية

وقد اضمحل شأن هذه المدينة بعد عصر الخلفاء الراشدين ولم تعد إليها مكانتها القديمة من الوجهة التجارية والصناعية

هذا ما يميل إليه المستشرقون وقد يكون من الصعب تفنيد هذا الرأي وتجريده من الصحة على أن هناك نقطة جوهرية يجب أن نتنبه لها ونحن نبحث أسباب الضعف الذي طرأ على يثرب بعد أن محيت منها سلطة اليهود

فقد يظهر لكل باحث في تاريخ المسلمين بعد الخندق وغزوة بني قريظة ظاهرة جديدة في منطقة يثرب أولا وفي الحجاز كله بعد زمن قصير : هي أن مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة أهملت إهمالا شنيعا وأخذ أفراد البطون وزعماؤها يتجهون نحو الشؤون الحربية التي شغلت العرب بما جلبت لهم من المغانم وبما مكنت لهم فيما يملك

وبعد غزوة تبوك أخذت الجيوش الإسلامية تغمر سورية والعراق ومصر وأفريقيا الشمالية فلم تبق للأعمال القديمة المعروفة في الجاهلية قيمة كبيرة في كسب الرزق وإحراز المال والسلاح إذ كانت ثمار الأرض من بر أو تمر قليلة جدا بالنسبة لما تغله الفتوح من مختلف الثمرات

وكذلك أهمل العرب أعمالهم الزراعية وتركوها بأيدي العبيد الذين جلبوهم من الأمم المغلوبة

ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على العنصر العربي وحده بل نجدها شاملة لكل الأمم في طور الانتقال من الفقر والبداوة إلى الملك والاستعمار فقد نعلم أن الأمة اليونانية أخذت بعد خروج الاسكندر الأكبر لفتح ممالك الشرق تنحط في الزراعة والتجارة وتهمل ما في بلادها من مصادر الثروة طمعا في جلب ما في الممالك الشرقية من المغانم الكثيرة وإلى مثل هذه الظاهرة يشير من كتب في تاريخ روما بعد قهرها لأمم العالم القديم

أما الإهمال الذي وقع في منطقة يثرب فقد ظهر أثره بعد زمن قصير في مكة إذ تدهورت شؤونها التجارية ولم نعد نسمع في التاريخ الإسلامي شيأ عن قوافل مكة إلى يثرب والشام واليمن لأن عشائر قريش وزعماءها وجدوا أرزاقهم فيما انبسط لهم في الممالك الإسلامية ولولا الكعبة بمكة لظلت كسائر مدن الجزيرة التي لم ترتق ولم تعظم بظهور الإسلام بل أصبحت خالية من أهلها العرب الذين طوحت بهم مطامع الفتوح

على أن الدكتور طه حسين يرى أن انحطاط يثرب والحجاز عامة من الوجهة المادية لم يكن ناشئا عن إضعاف اليهود وإجلائهم وإنما كان نتيجة لازمة لإنتقال النشاط العربي إلى جهة أخرى خارج البلاد العربية وهو يرى أن اليهود لو أنهم ظلوا مسالمين للنبي والمسلمين حتى تمت الفتوح لبخلوا بنشاطهم الطبيعي على هذه الأرض الحجازية التي لم يستعمروها إلا مضطرين ولألتمسوا لأنفسهم مستعمرات أخرى

أخصب وأجلب للنفع في العراق والشام أو مصر أو غيرها من البلاد التي فتحت على المسلمين

أما النتيجة المادية لمحو السلطة اليهودية في يثرب فواضحة فقد قسم الرسول المغانم من الذهب والفضة ومن المنازل والمزارع على المهاجرين ووضع تحت يد أنصاره زعامة الآطام التي أخذت من اليهود وما بقي من الأموال بعد هدايا المهاجرين والأنصار حفظ في بيت المال للدولة الفتية التي ظهرت بمظهر القوة بعد غزوة بني قريظة وكانت في حاجة شديدة إلى الأموال التي تساعد على تنفيذ المشروعات المهمة في الحجاز واطراف الشام

أما تأثير هذا الفوز المبين في القبائل العربية الوثنية من قريش وغيرها فسنبينه فيما بعد...

وأما المنافقون فقد خفت صوتهم بعد يوم قريظة ولم نعد نسمع لهم أعمالا أو أقوالا تناقش إرادة النبي وأصحابه كما كان يفهم ذلك من قبل

أما النساء والذراري فقد بعث بهم الرسول إلى نجد فابتاع بهم خيلا وسلاحا وقد اصطفى لنفسه من نساء قريظة ريحانة بنت زيد فكانت عنده حتى توفيت في حياته ويقول صاحب كتاب الطبقات إن الرسول ضرب عليها الحجاب وكان معجبا بها وكانت لا تسأله إلا أعطاها ولقد قيل لها لو كنت سألت رسول الله بني قريظة لأعنقهم.... وكانت امرأة جميلة وسيمة... فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها تطليقة وهي في موضعها لم تبرح فشق عليها وأكثرت البكاء فدخل عليها رسول الله وهي على تلك الحال فراجعها فكانت عنده حتى ماتت عنده....

وفي سورة الأحزاب آيات تتعلق بغزوة بني قريظة " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شئ قديرا "

وكذلك قال العرب شعرا كثيرا في غزوة قريظة وغروة الخندق وهو شعر لم يوجد له نظير في الغزوات الأخرى عند ابن هشام وهو يدل على ما كان لتلك الغزوة من وقع شديد في النفوس

ومما قاله جبل بن جوال الثعلبي يبكي بني قريظة :

ألا يا سـعد سـعد بـني معـاذ	لمـا لقيـت قريظـة والنضـير
لعمـرك ان سـعد بـني معـاذ	غـداة تحملـوا لهـو الصـبور
فأمـا الخزرجـي أبـو حسـاب	فقـال لقينقـاع لا تسـيروا
وبـدلت المـوالي مـن حضـير	أسـيد والـدوائر قـد تـدور
وأقفـرت اليـويرة مـن سـلام	وسـعية بـن أخطـب فهـي بـور
وقـد كـانوا ببلـدتهم ثقـالا	كمـا ثقلـت بحيطـان الصـخور
فـإن يهلـك أبـو حكـم سـلام	فـلا رث السـلاح ولا دثـور
وكـل الكـاهنين وكـان فـيهم	مـع اللـين الخضـارمة الصـقور
وجـدنا المجـد قـد نبتـوا عليـه	بمجـد لا تغيبـه البـدور
أقيمـوا يا سـراة الأوس منهـا	كـأنكم مـن المخـزاة عـور
تـركتم قـدركم لا شـئ فيهـا	وقـدر القـوم حاميـة تفـور

الباب الثامن

غزوة خيبر

الأسباب التي حملت الرسول على محاربة أهل خيبر – أهمية معاهدة الرسول مع قريش قبل هذه الغزوة من الوجهة السياسية والحربية – مراقبة قبائل الحجاز لغزو خيبر – غدر بني غطفان بحلفائهم أهل خيبر – النضال حول آطام خيبر – سلام بن مشكم وبقية زعماء خيبر – المناطق الحربية في بلاد خيبر – حصون خيبر المنيعة – الحاح اليهود في طلب الصلح – لماذا لم يجل الرسول أهل خيبر ؟ – رأى ابن هشام – آراء المستشرقين – مغانم خيبر – صحف التوراة والرسول – زواج النبي بصفية بنت حيي بن أخطب – محاولة زينب ابنة الحارث الانتقام من الرسول – لماذا تزوج الرسول بصفية بنت حيي ؟ – خضوع يهود وادي القرى وفدك وتيماء للرسول – نتيجة غزوة خيبر

ارتعدت فرائص يهود خيبر لما وصل إليهم ما حل بإخوانهم في يثرب من التنكيل والتقتيل وأوجسوا خيفة من نقمة المسلمين عليهم من جراء تحريضهم لبني قريش وغطفان مع حيي بن أخطب على محاربة الأنصار

وقد صرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بأن خطرا يتهدد كيان اليهود في الحجاز وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء ثم يزحفوا على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية في هذه الغزوة ولكن بعض الزعماء عارضه في هذا الرأي وكانوا في هذه الأثناء يرسلون الوفود بالأموال إلى المدينة لفداء عدد عظيم من النساء والذراري...

وقد علم الرسول بما يدور في خلد يهود خيبر فأخذ يتهيأ لقتالهم ولكنه أجله إلى أجل قصير لأسباب سياسية وأخذ الأنصار يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر

كمقدمات للغزوة

وكان من تلك الضحايا زعيمان كبيرا النفوذ والسيطرة في خيبر وهما سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام

أما الأول فقد قتل غيلة على فراشه في خيبر بواسطة خمسة من رجال بني الخزرج قصدوا خيبر فاحتالوا على امرأة سلام وقالوا لها إنهم يلتمسون الميرة ففتحت لهم الأبواب فهجموا على سلام وطعنوه بسيوفهم وهو على فراشه لا يدري بهم

ونلاحظ أن هذا القتل لم يكن بعد غزوة قريظة مباشرة بل جرى قبيل غزوة خيبر وكان أبو الحقيق من أصحاب العقول الراجحة فأراد المسلمون أن يتخلصوا منه قبل أن تدور المعارك بينهم وبين اليهود في ناحية خيبر

وأما الزعيم الثاني وهو اليسير بن رزام فقد كان يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول أهل خيبر في حرب مع المسلمين " فبعث إليه الرسول عبدالله بن رواحة في نفر من أصحابه فقدموا إلى اليسير بن رزام بخيبر وكلموه وقالوا له أنك إن قدمت على الرسول استعملك وألزمك فلم يزالوا به حتى إذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال ندم اليسير على مسيره ففطن له عبدالله بن أنس فاقتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله وضربه اليسير بمخراش في يده من شوحط فأمَه ومال كل رجل من الأنصال على صاحبه من اليهود فقتله إلا رجلا واحدا أفلت على رجليه.....

وقد يدل هذا على صحة ما رواه الواقدي من أن بعض زعماء خيبر لم يوافقوا على رأي سلام بن مشكم من محاربة المسلمين وأن اليسير بن رزام قد خرج فعلا مع عبدالله بن رواحة يقصد المدينة ليدخل في حلف مع الرسول ليمحو من قلوب الأنصار الإستياء من اشتراك بعض زعماء خيبر والنضير في يوم الخندق وأما عبدالله بن رواحة بأنه لم يأت إلى خيبر لعقد معاهدات بل لتنفيذ خطة سياسية خطيرة كان من شأنها أضعاف اليهود بقتل بعض زعمائهم

وقد اعتبر مؤرخو العرب قتل اليسير بن رزام من الأعمال السياسية الجليلة فقد وضعوا له بابا خاصا كأنه غزوة من الغزوات

أما ابن هشام فقد وضعها في أخبار الأنصار قبيل غزوة خيبر ولكي يتمكن الرسول من محاربة أهل خيبر دون أن يكون عرضة لخطر من جهة أخرى فقد توجه إلى مكة في ذي القعدة من السنة السادسة وتصالح مع قريش

وقد جاء ابن هشام بنص المعاهدة : هذا ما صالح عليه مُحَمَّد بن عبدالله سهيل بن عمر واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى مُحَمَّد من قريش بغير إذن وليه رده عليه ومن جاء قريشا ممن مع مُحَمَّد لم يرد عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا سلاسل ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد مُحَمَّد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه....

أما بعد عقد الرسول هذه الهدنة فقد أصبح آمنا شر قريش وصارت له الحرية في أن يسير حيث شاء فأمر جموع المسلمين أن يتجهزوا لغزو خيبر وخرج بهم في المحرم من السنة السابعة قاصدا خيبر وهي على ثلاثة أيام من المدينة

وأما الأسباب التي حملت قريشا على عقد الهدنة فهي أن قريشا كانت في حاجة شديدة إلى هدنة مع الرسول لما ظهر في مكة من الضائقة الاقتصادية بعد يوم قريظة ولما كانت تخشى على قوافلها من غارات المسلمين ولما كانت تتوقعه من انتقام الرسول بعد أن حاربته وكادت له في بدر وأحد والخندق

ولما سمع القرشيون بمسير النبي إلى مكة خرجوا معهم العوذ المطافيل وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله أن لا يدخلها المسلمون عنوة أما الرسول فلم يأت للقتال ولكنه جاء لزيارة البيت الحرام

ولاشك في أنه قد ظهرت للنبي بعد يوم قريظة سياسة جديدة إزاء قريش فقد أراد أن يأخذهم بالرفق ولكن أي رفق ؟ إنه رفق القوي الذي يريد أن يصل إلى

غرضه بدون أن يحكم السيف وليس رفقه هنا كرفقه بمكة يوم كان قليل الأنصار

ويحدثنا ابن اسحق أن الرسول قال : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها

فلما وثقت قريش أن الرسول يميل إلى مهادنتها لم تتردد في القبول

أما نص عقد الهدنة فإننا نعتقد أنه كان أطول مما وصل إلينا في كتاب السيرة فقد جرت مفاوضات كثيرة قبل الهدنة ولم تكتف قريش بأقوال مبهمة وإنما طلبت شروطا واضحة تضمن لمتاجرها وقوافلها الأمان

والذي يرجع إلى آيات سورة الفتح التي يشرحها ابن إسحق يرى أن الأخبار القليلة التي وصلت إليه عن يوم الحديبية يرجع الفضل فيها إلى الآيات أكثر من الروايات التي لم يبق منها لعهده إلا القليل

أما أنصار الرسول فقد غضبوا وثاروا إذ اعتقدوا أن شروط الهدنة في صالح قريش وكانوا يودون أن تذعن لحكم الرسول بلا شرط ولا قيد وفي هذه الهدنة قال عمر بن الخطاب كلمته المأثورة " علام نعطي الدنية في ديننا "

وبالرغم من ثورة المسلمين على شروط الهدنة فقد كان في قبولها من الرسول دلالة كبيرة على بصره بالعواقب وعلمه بالسياسة الدقيقة ويؤيد ذلك ما قاله الزهري فما فتح في الإسلام فتح قبل يوم الحديبية كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وآمن الناس كلهم بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أما أكثر....

أما الآيات التي تتعلق بيوم الحديبية فهي تحتوي على سورة الفتح بأجمعها " إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما... إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا

عظيما.... وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرامو الهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليما لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا... "

وتتلخص الأسباب التي حملت النبي على غزو خيبر فيما يأتي :

(١) ثأره من يهود خيبر لما فعلوه من تحريض قريش وغطفان على محاربة المسلمين

(٢) كانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف بأسا وأوفرها مالا وسلاحا ولم يكن هناك أي أمل في أن يعتنقوا الدين الإسلامي بعدما اثبتت التجارب السابقة مع يهود يثرب أن اليهود لن يدخلوا في الإسلام، ولما كان الغرض الذي يرمي إليه الرسول إنما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد كان حتما عليه في هذه الحال أن يقضي على يهود خيبر حتى لا يكونوا حجر عثرة في سبيل تحقيق ذلك الغرض

(٣) لم يجد النبي قوة تقف في سبيل نشر دينه إلا قوتين اثنتين قوة قريش وقوة اليهود لذلك وضع نصب عينيه القضاء على هاتين القوتين ليخلو له الجو ويتمكن من نشر دعوته. أما بقية القبائل الحجازية فلم تكن من القوة والخطورة بمثل ما كانت قريش واليهود

ويظهر أن صاحب السيرة لم تصله أخبار كثيرة عن غزوة خيبر لذلك لجأ مؤرخو العرب – وقد كانت لهم سيرة ابن هشام الينبوع الذي يستقون منه جميعا – إلى

الأخبار والروايات المضطربة فجاءت بعض رواياتهم مختلطة بكثير من العجائب والغرائب كما سنوضح ذلك فيما بعد

ومما لا شك فيه أن غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الفتوح الإسلامية إذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب نتيجتها باهتمام وتنظم شؤونها على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليل السيوف بين الأنصار واليهود وقد كان أعداء الرسول الكثيرون في بادية العرب وحاضرتها يعلقون آمالا كبيرة على تلك الغزوة

وقد انقسم أهل مكة قسمين : طائفة منهم ترجح أن النصر سيكون حليف اليهود وطائفة ترى أنه سيكون من نصيب المسلمين وكثيرا ما تراهن بعض الأفراد من كلتا الطائفتين بسبب ذلك

وقد كان الاهتمام بهذه الغزوة شديدا جدا في مكة أثناء القتال حول آطام خيبر حتى أن الحجاج بن علاط لما ذهب إلى مكة بعد أن انتهى الحرب بفوز المسلمين خدع أهلها وقال لهم " عندي من الخبر ما يسركم : هزم مُحَمَّد هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر مُحَمَّد أسرا وقال أهل خيبر لا تقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهره بمن كان أصاب من رجالهم فابتهج أهل مكة لهذا الخبر ودخلوا إلى الكعبة ليقدموا الضحايا إلى اللات والعزى...

وأما يهود خيبر فقد أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا من حلفائهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر أن غلبوا على المسلمين فقبلوا

ولكن بطون غطفان التي اشتهرت بغدرها يوم الخندق أخلت بيهود خيبر أيضا إذ بعد أن تهيأت غطفان للقتال وظهرت طلائع الجيش الإسلامي دب الخوف في قلوبهم واستولى عليهم الفزع فرجعوا على أعقابهم وأقاموا في أهليهم وخلوا بين الرسول وبين خيبر

ولكن يظهر أن غطفان لم ترجع على أعقابها من جراء الخوف من طلائع الجيش

الإسلامي كما يقول ابن هشام لأن لدينا رواية أخرى تقول إن الرسول قد بعث إلى بني فزارة من بني غطفان وكانوا قد قدموا لمحاربة المسلمين مع يهود خيبر يطلب منهم أن " لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئا سماه لهم فأبوا عليه وقالوا حلفاؤنا وجيراننا فلما افتتح الله خيبر أتاه من كان هناك من بني فزارة فقالوا الذي وعدتنا فقال لكم ذو الرقيبة لجبل من جبال خيبر

وقد جاءت هذه الرواية في كتاب المغازي للواقدي حيث يقول : إن عيينة زعيم بني فزارة قد غضب ولم يقبل ذا الرقيبة لأن أرضها لم تكن خصبة

أما اليهود فإنهم بعد أن شاوروا زعيمهم سلام بن مشكم " أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الوطيح والسلالم وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم وجمع المقاتلة وأهل الحرب في حصن نطاة وسلام بن مشكم مع أنه كان مريضا جاء ودخل نطاة معهم وحرض الناس على الحرب "

وكانت حصون خيبر منيعة على رؤوس الجبال وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال والنضال وكانوا أصحاب سلاح كثير واستعملوا آلات الهدم في رد عادية المغيرين عن آطامهم...

وكان الرسول قد جاء بخيار الأنصار مسلحين بكل ما غنموه في الغزوات السابقة وكذلك انضم إليهم كثيرون من قبائل العرب البادية طمعا في أموال اليهود

وكان من نتائج أول معركة بعد أن التقى الجمعان حول حصن نطاة أن وصل عدد جرحى المسلمين إلى ٥٠

وعلى العموم فإنه من المتعذر معرفة عدد القتلى في هذه المعارك لأن مؤرخي العرب - كما قلنا - لم تصلهم أخبار كثيرة عن غزوة خيبر وفضلا عن ذلك فإنه من المعروف أن المؤرخين في التاريخ العام لا يذكرون عدد القتلى والجرحى من جهاتهم بينما يبالغون في عدد القتلى والجرحى من العدو

وقد نكب اليهود في أول عهد الغزوة بنكبة شديدة بسبب وفاة زعيمهم سلام

بن مشكم في حصن نطاة وكان المسلمون يحاصرونه أثناء ذلك

وقد وجد في هذا الحصن أولاد بني قمة وكانوا أصحاب ثروة طائلة في خيبر حتى قالت عائشة زوج الرسول عن هذه الأسرة : ما شبع رسول الله من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قمة

وانتقلت القيادة بعد وفاة سلام بن مشكم إلى الحارث أبي زينب الذي خرج بعد ذلك من حصن ناعم لمنازلة الجيش الإسلامي فانهزم أمام بني الخزرج الذين بادروا لقتاله واضطروه إلى أن يرجع إلى الحصن ثم تجمع جماعة من اليهود رابطي الجأش وهجموا على الأنصار حتى وصلوا إلى حامل الراية بالقرب من الرسول فبعث الرسول أبا بكر الصديق براية إلى الحصن فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ثم بعث في الغد عمر بن الخطاب ورجع ولم يكن فتح وقد جهد فدعا الرسول عليا وهو أرمد فنفل في عينه ثم قال خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من يده فتناول عليَ بابا كان عند الحصن فتترس به فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ. فلقد كان في نفر ثمانية اجتهدوا على أن يقلبوا الباب فلم يقلبوه

أما صاحب تاريخ الخميس فيسرد هذه الأخبار ويلاحظ أن الذين أرادوا خلع باب الحصن كانوا سبعين ولم يحركوه إلا بعد جهد... وقد حمله علي بن أبي طالب على ظهره وجعله قنطرة دخل عليها المسلمون الحصن ثم ألقى ذلك الباب وراء ظهره ثمانين شبرا

وفي أثناء هجوم الأنصار على حصن ناعم قتل البطل الخيبري مرحب بعد مبارزة عنيفة مع مُحَمَّد بن مسلمة

وتذكرنا هذه المبارزة بحسب رواية صاحب الخميس بالروايات الخرافية عند قماء الإغريق

والذي يمكننا أن نستنتجه من هذه الروايات أن معارك عنيفة دارت حول حصن

ناعم دون أن يتغلب المسلمون على اليهود بأمر الرسول أنصاره أن يقطعوا أربعمائة من نخيل اليهود ليدخل الرعب في نفوسهم

وقد نصح أبو بكر الصديق الرسول بأن يمتنع عن قطع باقي الأشجار ففعل وسقط حصن ناعم بعد أن قتل قائده الحارث أبو زينب

وكان حصن ناعم من الحصون المنيعة في منطقة نطاة التي كانت بها آطام تعرف بهذا الاسم

وكانت بلاد خيبر منقسمة إلى ثلاث مناطق حربية الأولى نطاة والثانية الشق والثالثة الكتيبة

وبعد أن سقط حصن ناعم توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ وزحفوا عليه ففرق اليهود شملهم فاضطر الرسول أن يزجر رجاله ويحمسهم فتقدموا واقتحموا السور ولكنهم وجدوا بعده سورا آخر داخليا فأنزلوه بعد جهد شديد وارتد اليهود إلى حصن آخر هو حصن الزبير في نفس منطقة نطاة

وكان مقاتلة المسلمين قبل فتح حصن الصعب بن معاذ في حالة ضنك شديد لقلة المؤن عندهم وكثرة الجيوش فتوجهت جماعة منها إلى الرسول تشكو إليه وتطلب منه ما تسد به رمقها. فلم يجد الرسول شيأ يعطيهم إياه فقال اللهم أنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شئ أعطيهم إياه

وقد أذن الرسول للأنصار في أكل لحوم الخيل

وحدث أثناء ذلك أن أحد المسلمين اغتنم شاتين اغتنمهما بعد أن دخلت أولاهما الحصن فحضنهما تحت يديه وأقبل بهما إلى الرسول فذبحوهما وأكلوهما وكان هذا الرجل إذا حدث هذا الحديث بكى

لكن بعد فتح حصن الصعب بن معاذ وجد المسلون طعاما وودكا كثيرا

ويظهر لي أن معاذا هذا لم يكن علما لشخص كما تشعر بذلك تسمية الحصن

به بل تعرف الصخرة العالية في اللغة العبرية باسم معاذ

وقد كان هذا الحصن على صخرة عالية كما ذكر ذلك صاحب تاريخ الخميس أما حصن الزبير فقد كان منيعا جدا حتى إن المسلمين لم يستطيعوا فتحه على عظم ما بذلوا من جهود إلا بعد أن جاءهم يهودي فغدر بإخوانه فنصح لهم بقطع الماء عن المحصورين وكان هذا الماء يجري إلى القلعة من تحت الأرض فاضطر اليهود إلى أن يخرجوا منه. وبعد مبارزة عنيفة انهزموا وفروا إلى أبناء جلدتهم في منطقة آطام الشق

ولما أصبحت آطام منطقة النطاة في أيدي الغزاة اتجهوا إلى إقليم الشق وشرعوا يحاصرون قلعة أبي وهي على جبل شمران

ولسنا نعرف مما جرى أثناء حصار ذا الحصن أكثر من حدثت مبارزات بين أفراد من اليهود والمسلمين انتهت بفتح القلعة

ترك الرسول بعد ذلك بقية حصون منطقة الشق في أيدي اليهود لقلة أهميتها من الوجهة العسكرية وقصد أرض الكتيبة حيث احتشد اليهود في حصن القموص الذي تجمعت فيه جموع المنهزمين والفارين من الحصون الخيبرية الأخرى

وكانت القمومي تحت قيادة بعض الأشراف من بني الحقيق وكان في هذا الحصن نساء هذه الأسرة وقد كان لهذا الحصن اسم آخر وهو نزار ومعناه باللغة العبرية التاج (נזר) وقد اختلف بعض مؤرخي العرب في أخبار حصني ناعم والقموص فابن هشام والواقدي يقصان بعض الأخبار عن ناعم في حين ويأتي صاحب تاريخ الخميس بنفس هذه الأخبار على أنها حدثت أثناء الحصول حول القموص

على أننا لا نعلق أهمية كبيرة على أخبار كهذه لا تجدي المجادلة فيها فتيلا لأنها روايات خيالية أكثر منها حوادث حقيقية

استمر الحصار حول حصن القموص عشرين يوما حيث انتهى بتمكين المسلمين من فتحه عنوة ووقع في قبضتهم سبايا من النساء والذراري فقسمها الرسول بين أنصاره واصطفى لنفسه منها صفية ابنة حيي بن أخطب

وبينما كانت الجيوش الإسلامية تحاصر الوطيح والسلالم في إقليم الكتيبة طلب اليهود الصلح وسألوا الرسول أن يحقن دماءهم فأجابهم إلى طلبهم وحقن دماءهم

وهنا نتساءل لماذا عامل الرسول يهود خيبر بغير المعاملة التي عامل بها يهود يثرب ؟

ويتلخص الجواب على هذا السؤال في أن خيبر كانت واسعة الأطراف وفيها من الحدائق والمزارع والنخيل ما يحتاج للأيدي الكثيرة التي مارست أشغال الزراعة والفلاحة ولم يكن من العرب من مارس ذلك إلا النزر القليل وفوق ذلك لم يرض الرسول أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الأرض ويعمل بها لاحتياجه إليهم في الاعمال الحربية ولم يكن في الإمكان ترك هذه الأرض الخصبة بورا لا تنتج زرعا ولا ثمرا إلا أن الدولة الإسلامية الناشئة كانت في أشد الحاجة إلى الأموال الكثيرة فلم يكن بد من الإبقاء على اليهود ليعملوا في هذه الأرض وينتجوا منها الزرع والثمر ولذلك كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين في مصلحة المسلمين أكثر منها في جانب المغلوبين

هذا إلى أن يهود خيبر لم يفعلوا ما يوغر صدر الرسول ويثير حقده عليهم كما فعل غيرهم وكل ما كان منهم لا يعدو اشتراك بعض زعماء بني النضير اللاجئين إلى يهود خيبر في تحريض قريش وغطفان على المسلمين في يوم الخندق فما دامت شوكة اليهود في الحجاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر في أراضيهم بل كان في وجودهم مصلحة كبيرة حيث يستثمر مجهوداتهم في الأعمال التجارية والزراعية للإكثار من واردات الحكومة الجديدة كما ذكرت آنفا

ويرتاب بعض المستشرقين في قول الواقدي (إن المسلمين لم يتركوا ليهود خيبر سوى ثوب واحد لكل منهم وسوى نسائهم وذراريهم)

ويؤيد المستشرقين في ارتيابهم هذا أن الواقدي نفسه يقول في نفس الصحيفة التي ذكر فيها ذلك إن اليهود قد جاءوا من منطقة الكتيبة لشراء غنيمة القموص وفداء النساء والذراري من أيدي الظافرين فمن أين جاءوا بما يشترون به الغنائم ويفدون النساء والذراري إذا لم يكن المسلمون تركوا لهم إلا ثوبا واحدا لكل واحد منهم

والواقع أن الرسول خمس بلاد خيبر وقسمها على الأنصار وعلى أصحابه ونسائه بطريقة الأسهم وأقام اليهود على أراضيها على أن يعطوا نصف ثمارها للمسلمين وكان رسول الله يبعث عبدالله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص

وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم....

ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب. م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضا صحف التوراة. هذا هو اليوم الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام

وقد قلنا إن الرسول قد اصطفى لنفسه صفية بنت حيي بن أخطب بعد أن قتل زوجها كنانة بن الربيع ويظهر أن بعض الأنصار خافوا على النبي من هذا الزواج إذ " لما أعرس رسول الله بصفية بخيبر أو ببعض الطريق وكانت التي جملتها لرسول الله ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم ابنة ملحان فبنى بها رسول الله في قبة له وبات أبو أيوب خالد متوشحا سيفه يحرس رسول الله ويطوف بالقبة حتى أصبح رسول الله فلما رأى مكانه قال مالك يا أبا أيوب قال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك....

وقد كان المسلمون محقين في خوفهم على الرسول وقيامهم على حراسته لأن يهود خيبر كانت نفوسهم قد امتلأت بالحقد على الأنصار الذين فتحوا أمصارهم واقتسموا أموالهم وأخضعوهم لسلطانهم وهي غريزة بشرية لا يخلو منها أحد إذ ليس في الناس من يقبل على نفسه الضيم والهوان فقد قتل يهود خيبر رجلا من المسلمين بعد أن رجعت

ويدل على مبلغ ما كان في نفوس اليهود من الاستياء ما أقدمت عليه امرأة يهودية من عمل بالغ غاية القسوة إذا أرادت أن تنتقم لقومها " فاهدت زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية كانت مسمومة ووضعتها بين يدي الرسول فتناول الذراع فلاك منها فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله وأما بشر فاساغها وأما رسول الله فلفظها ثم قال إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال ما حملك على ذلك قالت بلغت من قومي ما لم يخف عليه فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيخبر فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أكلته التي أكل...

ولقد أثار هذا العمل سخطا شديدا في نفوس مؤرخي العرب على هذه الفتاة التي حاولت أن تغتال حياة الرسول بمثل هذه المكيدة

ولكن يجب ألا يغيب عن البال صعوبة اطمئنان فتاة إلى الحياة بعد أن قتل أبوها وكان زعيما شريفا ومات زوجها وكان قائدا ذا مجد تليد وفتاة في مثل موقفها لابد أن تسقط تحت سلطان الغضب وتصغي لوحي الانتقام لاسيما وهي مالكة له قادرة عليه

والمؤرخ الذي يلتفت إلى هذه الاعتبارات كلها يلتمس لهذه المرأة بعض العذر فيما أقدمت عليه من عمل منكر

أما صفية بنت حيي بن أخطب فقد أقامت على الولاء والوفاء لزوجها الجديد وبقيت معه قرينة مخلصة إلى أن انتقل إلى جوار ربه

وقد اقتفى النبي بعمله هذا أثر الفاتحين العظماء حيث كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي كانوا يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم

ولقد كان بعض نساء الرسول يعاملن صفية بكبرياء وعظمة فكان ذلك يؤلمها ويبكيها فقال لها النبي : قولي لهن إنك ابنة هارون وكان عمك موسى رسول الله

ويحدثنا ابن سعد " أن نبي الله في الوجع الذي توفى فيه اجتمع إليه نساؤه فقالت

صفية بنت حيي أما والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي فغمزها أزواج النبي وأبصرهن رسول الله فقال مضمضن فيقلن من أي شئ يا نبي الله قال من تغامزكن بصاحبتكن والله إنها لصادقة

وقد توفيت صفية سنة اثنتين وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ودفنت بالبقيع

وفي أثناء محاصرة المسلمين للوطيح والسلالم من آطام خيبر أرسل الرسول بعض جنوده إلى فدك الواقعة شمال بلاد خيبر وكان قائد هذه البعثة محيصة بن مسعود " فدعا أهلها إلى الإسلام ولما رأى أن لا ميل لهم في الصلح وأرادوا أن يحاربوه جاءت إليهم أخبار خيبر فوقع في قلوبهم خوف عظيم فأرسلوا جماعة من اليهود إلى النبي حتى يصالحوه فبعد القيل والقال الكثير استقر الأمر على أن يعطوا النبي نصف أرض فدك ولهم نصفها فرضي النبي فصالحهم على ذلك

فكانت فدك خالصة للرسول لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولما فرغ الرسول من أمر خيبر تجهز للرحيل إلى المدينة عن طريق وادي القرى فلما سمع أهلها جنود المسلمين تهيأوا للقتال وعرض عليهم الرسول الإسلام فأبوا عليه ذلك وقاتلوا ذلك اليوم إلى الليل ثم تصالحوا وأقامهم النبي على أراضيهم وذراريهم وأموالهم

ولما وصل أمر خيبر وفدك ووادي القرى إلى يهود تيماء خافوا وقبلوا الجزية

وقد سرد الواقدي حوادث مبارزات وقعت بين جماعات من يهود وادي القرى وجمهور من المسلمين رأيت ألا أنقلها لعدم أهميتها

* * *

وعلى كل حال فقد قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود السياسي في البلاد الحجازية قضاء نهائيا. بعد أن قضوا عصورا طويلة وهم يتمتعون به ويتفيأون ظلاله فأخذت حالهم الاقتصادية تتدهور شيئا فشيئا حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفقر والفاقة وقد فقدوا ما كان لهم من تأثير ونفوذ عند العرب في الجزيرة العربية وقد

جاء الواقدي بقصة تدل على ما وصل إليه اليهود بعد غزوة خيبر من سوء حال وغضاضة عيش فقال عمن انتهت إليه روايته : كانت عادتنا أن نخرج في الجاهلية أثناء القحط من يثرب إلى جهات خيبر وفدك حيث كنا نجد عند اليهود الثمار الوافرة والأموال الكثيرة وحيث كنا نقابل منهم بالحفاوة والإكرام فلما أدركنا الضغط الشديد بعد غزوة خيبر خرجنا إليها كعادتنا فوجدنا الدهر قد انقلب عليها ووجدنا الجدب قد ضرب أطنابه فيها حتى لم نجد أحدا من الأغنياء والأشراف بل كان معظم أهلها في فقر مدقع يجهدون أنفسهم في أعمال الفلاحة وكذلك لم نجد من بينهم من يقابلنا بتلك الحفاوة التي اعتدناها منهم في الجاهلية بل كانوا ينظرون إلينا بعين البغض والانتقام وكان يهود نطاة والشق في سوء شديد أما في أطام الكتيبة فقد شعرنا بأن حالة السكان أحسن فأقمنا بينهم مسرورين

* * *

وهذه الوثيقة التاريخية أكبر برهان على سوء حال اليهود في خيبر بعد الغزوة فضلا عن أنها تؤكد ما جاء في سيرة ابن هشام عن الدمار والخراب الذي أصاب خيبر أثناء الغزوة

أما وجود منطقة الكتيبة في حالة أحسن مما كانت عليه منطقتا نطاة والشق فيرجع إلى أن أغلب آطامها صالح الرسول فأقامهم على أراضيهم ولم يمس الأنصار من حدائقهم وذراريهم شيئا

الباب التاسع

إجلاء اليهود عن البلاد الحجازية

وقوف الخصومة بين اليهود والمسلمين بعد غزوة خيبر – عبدالله بن أبي واليهود – وجود عناصر يهودية في المدينة طول حياة الرسول – كتب الرسول إلى بطون العرب واليهود – الصحيفة إلى آل بني حنينة – رأي صاحب فتوح البلدان في هذه الصحيفة – اكتشاف نص الكتاب في المقبرة اليهودية بمصر – رأي المؤلف في هذه الصحيفة – حالة اليهود في البلاد الحجازية بعد وفاة الرسول – لماذا طرد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أغلب يهود خيبر ؟ – أحاديث نبوية في هذا الموضوع – قصة ابن هشام في إجلاء عمر بن الخطاب طوائف اليهود – رأي ابن سعد صاحب الطبقات في هذا الموضوع – صحيح البخاري وأحاديثه في هذا الموضوع – وجود اليهود في بلاد الحجاز إلى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد – بقايا طوائف اليهود في بلاد العرب إلى الآن

قلنا إنه كان من نتائج غزوة خيبر أن قضى قضاء تاما على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التي كانت لليهود في أقاليم الحجاز

وقد ترتب على هذا أنه انقطعت الخصومة بين المسلمين واليهود ووقف تيار المطاعن والمثالب التي كانت متبادلة بين الطرفين

ويدل على ذلك أن الرسول لم ينزل عليه شئ كثير من الآيات القرآنية التي تتضمن ذم اليهود والطعن فيهم بعد هذه الغزوة على خلاف ما كان من ذلك في الفترة التي كانت بين يوم بدر وغزوة خيبر

وقد عاش اليهود الذين لم ينزحوا من الحجاز مطمئنين لا يمسهم أحد بسوء وعاد عدد منهم إلى المدينة بدليل ما جاء لبعضهم من ذكر في سيرة ابن هشام وفي كتاب

المغازي للواقدي وقد استنتجت مما قرأت في هذين الكتابين عن البقية الباقية من اليهود في المدينة بعد غزوة خيبر أنهم كانوا جميعا من بني قينقاع وقد كان هؤلاء قد جلوا عنها فما هو السر في عودتهم إليها وما هي الأسباب التي دعت إلى ذلك ؟ لم يكن من سبب لإجلاء بني قينقاع عن المدينة إلا امتناعهم عن اعتناق الدين الإسلامي فهم لم يرتكبوا شيئا من الجرائم التي توغر صدور المسلمين وتملؤها بالحقد والضغينة عليهم بعد توطيد سلطانهم وتثبيت قواعدهم وإذن فليس ما يمنع من عودة بعض الأسر من بني قينقاع إلى المدينة واستيطانهم فيها لاسيما وأن وجودهم في المدينة كان ضروريا للإنتفاع بهم في استثمار الأموال الكثيرة التي جلبت إلى يثرب من غنائم البطون العربية واليهودية المغلوبة على أمرها وكان بنو قينقاع يحسنون كثيرا من الصناعات من أجل ذلك تغاضى الأنصار عن رجوع بعض اليهود إلى يثرب فأقبل عدد منهم عليها وعكفوا يعملون في أعمالهم القديمة

ولما توفى عبدالله بن أبي بكى عليه اليهود ووقف النبي على قبره وعزى ابنه وألبسه قميصه

وقد خرجت نساء الأوس والخزرج جميعا إلى جميلة ابنة عبدالله وشاركنها في البكاء عليه وضربن بأيديهن على وجوههن وكثر القوم من بني قينقاع والمنافقون حول سريره حين لفظ نفسه الأخير أثناء مرضه فأغضب ذلك ابنه الحنيف حتى هم في ذات يوم أن يغلق الباب في وجههم فمنعه والده وقبح فعله وأنحى عليه باللائمة وقال له دعهم فإن قربهم مني يشفي صدري العليل ويخفف من آلامي فقد شاركوني فيما نزل بي من النوائب وقد كان عبدالله بن أبي مبجلا فيهم حتى قالوا له يا عبدالله نود أن نفديك بدمائنا وأموالنا... ولما مات أرادوا أن يستأثروا بدفنه دون الأنصار ولكن عبادة بن الصامت أمر بضربهم وقال المسلمون بأعمال الدفن وظل الرسول أثناء ذلك واقفا لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجثة عن العيون وأخذ بنو قينقاع والمنافقون ينشرون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والألم

وقد أثرت هذه النصوص التي نقلتها آنفا في العلماء المستشرقين وحملتهم على

أن يشكوا في صحة بعض الأحاديث التي تقول إن البقية الباقية من اليهود في المدينة قد تم جلاؤها عنها في حياة الرسول

ويؤيد شكهم ما وجدنا من روايات ونصوص تاريخية تدل على أن الرسول كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح حتى أنه أوضى عامله معاذ بن جبل (بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم)

وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين إذ لم يكلفوا إلا دفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم....

وقد دخل يهود بني غادية وعريض في حلف الرسول كما يحدثنا ابن سعد في مصنفه عن (بعثة رسول الله الرسل بكتبه) : وكتب رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من مُحَمَّد رسول الله لبني غادية أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عدي ولا جلاء الليل مد والنهار شد وكسب خالد بن سعد وهم قوم من يهود.... وكتب رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هذا كتاب من مُحَمَّد رسول الله لنبي عريض طعمة من رسول الله عشرة أوسق قمح وعشرة أوسق شعير في كل حصاد وخمسين وسقا تمرا بوفون في كل عام لحينه لا يظلمون شيئا وكتب خالد بن سعيد وبنو عريض قوم من يهود...

وأهم من كل هذا تلك الحقوق والامتيازات التي منحها الرسول لآل بني حنينة وأهل مقنا فقد وصلت إلينا وثيقة تاريخية في هذا الصدد من مرجعين مختلفين ونحن ننقل النصين لنقارن بينهما ونستخلص منهما بعض النتائج المرتبطة بموضوعنا

يقول صاحب المرجع الأول وهو البلاذري : إن الرسول صالح أهل مقنا وبني حبيبة (الصواب حنينة) على ربع عروكهم وغزولهم (العروك خشب يصطاد عليه) وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم وكتب إليهم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ من مُحَمَّد رسول الله إلى بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا سلم أنتم فإنه أنزل على أنكم راجعون إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون

ولكم ذمة الله وذمة رسوله وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم في قرينكم إلا رسول الله يجيركم كما يجير منه نفسه فإن لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله وأن لكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم وربع ما اغتزلت نساؤكم وأنكم قد ثريتم بعد ذلكم ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة إن سمعتم وأطعتم أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتمر في بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا من المسلمين فهو خير له ومن أطلعهم بشر فهو شر له وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله.... وكتب على بن أبي طالب في سنة ٩.....

ويضيف المؤلف إلى هذه الوثيقة التاريخية أنها وصلت إليه من بعض أهل مصر الذين رأوا الصحيفة بعينها وهي من جلد أحمر دارس الخط

وأما النص الآخر لهذه المعاهدة فقد وصل إلينا بعد اكتشاف آثار قديمة في المقبرة اليهودية بمدينة الفسطاط حيث عثر عليه تحت أنقاض وهذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من مُحَمَّد رسول الله لحنينة ولأهل خيبر وآل مقنا وذراريهم ما دامت السموات والأرض

(سلام) أنتم إني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو...

أما بعد فإنه أنزل الوحي إنكم راجعون إلى قراكم وسكني داركم فارجعوا آمنين بأمان الله وأمان رسوله ولكم ذمة الله وذمة رسوله ولكم ذمة الله على أنفسكم ودونكم وأموالكم ورقيقكم وكل ما ملكت أيمانكم وليس عليكم أداء جزية ولا تجزلكم ناصية ولا توطأ أرضكم ولا تحسدون (ولا تحشرون ؟!) ولا تصلمون ولا يجعل أحد عليكم ولا يمنعون من لباس المشققات والملونات ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح ومن قاتلكم فقاتلوه ومن قتل في حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية ومن قتل منكم أحد المسلمين تعمدا فحكمه حكم المسلمين ولا

يعتدي عليكم بالفحشاء (ولا تجزلون منزلة ؟!) أهل الذمة وإن استعنتم تعانون وإن استرفدتم ترفدون ولا تطالبون بيضاء ولا بصفراء ولا بسمراء ولا كراع ولا حلقة ولا يقطع لكم شسع نعل ولا تمنعون دخول المساجد ولا تحجبون من ولاية المسلمين ولا يولي عليكم إلا منكم أو من أهل بيت رسول الله (واسع ؟) لجنائزكم إلى أن تصير إلى موضع الحق واليقين وتكرموا لكرامتكم ولكرامة صفية ابنة عمكم وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين أن يكرموا كريمكم ويعفوا عن مسيئكم ومن سافر منكم فهو في أمان الله وأمان رسوله ولا إكراه في الدين ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته كان له ربع ما أمر به رسول الله لأهل بيته تعطون عطاء قريش وهو خمسون دينارا ذلك بفضل مني عليكم وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما في هذا الكتاب فمن اطلع إلى حنينة وأهل خيبر ومقنا بخير فهو خير له ومن اطلع له بشر فهو شر له ومن قرأ كتاب هذا أو قرئ عليه وغير أو خالف شيئا مما به فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين وهو برئ من ذمتي وشفاعتي يوم القيامة وانا كاظمه ومن كاظمني فقد كاظم الله فهو في النار وكفى بالله شهيدا وبملائكته وبمن حضر من المسلمين وكتب على بن أبي طالب بخطه ورسول الله أملى عليه حرفا حرفا يوم الجمعة للثلاث الأول خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة شهد عمار بن ياسر وسلمان الفارسي مولي رسول الله وأبو ذر الغفاري....

ويظهر أن هذه المعاهدة التي استخلص صاحب فتوح البلدان خلاصتها ووصفها في كتابه إنما كانت معروفة لدى العلماء والمؤرخين من العرب في مصر وقد حافظ عليها اليهود في مدة قرون طويلة إلى أن اندثرت مدينة الفسطاط في عهد الفاطميين وأصبحت قاعا صفصفا فدفنت هذه الصحيفة تحت أنقاض منازل يهودية إلى أن اكتشفت حديثا

لكن لا شك أن هذه الصحيفة ملفقة كما لفقت صحائف ومعاهدات كثيرة جدا بعد أن انتقل الرسول إلى دار ربه لأن الذين كانت بأيديهم معاهدات صحيحة قد أقرهم عليها الخلفاء الراشدون ولم ينقضوا من شروطها شسع نعل (كما تقول

هذه المعاهدة)

وإنا لنعلم أن بطونا عربية كثيرة اندفعت إلى تزوير الكتب باسم الرسول وقد حافظت عليها

ولا غزو أن تظهر رسائل ملفقة في عصر الاضطرابات التي حلت في الأقاليم الإسلامية من جراء الخصومة التي ظهرت بين الإمام علي بن أبي طالب وبين عصبة معاوية بن أبي سفيان بعد مقتل عثمان بن عفان فعلى ذلك قد يكون لنا الحق كل الحق أن نشك في صحة هذه المعاهدة التي نحن بصددها

لكن مما لا شك فيه أن الرسول قد منح أسرا غير قليلة من أهل خيبر حقوقا لم يمنحها لبقية اليهود ما عدا الإقرار على الأراضي وإبقاءه لهم نصف الثمار فإن هذا كان من حق كل يهود خيبر وقد نص على ذلك بن هشام والبخاري كما نصا على أنه كانت هناك عقود وعهود بين الرسول وبين أسر يهودية في خيبر كما سيتضح ذلك فيما بعد

أما أسلوب هذه الصحيفة ولغتها ففيها شبه كبير بنصوص المعاهدة الكبيرة التي عقدها الرسول مع اليهود بعد هجرته إلى يثرب وهذا حمل بعض المستشرقين على الاعتقاد بأن معاهدة من هذا النوع لم تكن ملفقة لأنها كانت موجهة إلى آل صفية زوج الرسول أي إلى حنينة في مقنا وخيبر

وأما الأسباب التي حملتنا على أن نشك في صحة هذه الصحيفة فهي :

(١) لم يكن المسلمون أثناء حياة الرسول يؤرخون بالهجرة لأن هذا لم يتقرر إلا في زمن خلافة عمر بن الخطاب على أن سنة خمس التي وجدت في ديل هذه المعاهدة إنما تدل على أن كاتبها كان يجهل جهلا تاما تاريخ غزوات الرسول

(٢) لأن مسير المسلمين إلى خيبر كان في سنة سبع من الهجرة ولا يحتمل أن يعقد الرسول عقدا مع آل زوجه صفية قبل التحاقها به وقد كانت هي السبب الوحيد في منح الرسول آل بني حنينة تلك الحقوق الكثيرة إذا فرضنا صحة

هذه الصحيفة.

(٣) إن السنة الخامسة للهجرة كان النزاع فيها بين الرسول واليهود على أشد ما يكون من الحدة والقوة وقد نزل في تلك السنة بعض آيات قرآنية تكاد تكون من نار تطعن في اليهود وتؤنبهم تأنيبا شديدا فليس معقولا أن يعقد الرسول في تلك السنة مثل هذا العقد مع أسرة حنينة الخيبرية دون أن يكون هناك عامل خاص يدفعه إلى ذلك لاسيما أن آل صفية كانوا من زعماء القوم ومن أشدهم معارضة في تنفيذ مشروعات الرسول الدينية والسياسية

(٤) المفهوم أن المعاهدة لم تكن تشمل أهل خيبر ومقنا جميعا كما جاء في المعاهدة حيث يقول فيها " إلى حنينة وأهل خيبر ومقنا " بل كانت موجهة إلى حنينة وأهله في خيبر ومقنا لأن هذه الحقوق والامتيازات لم تمنح الالآل صفية دون غيرهم من اليهود وقد غير هذا التلفيق اليسير معنى المعاهدة جميعها

(٥) تنص المعاهدة على أن الرسول يسمح لكل يهود خيبر بأن يحملوا السلاح وألا يعاقبوا على قتل المشركين فهي حقوق لم تمنح لقوم مغلوبين لأنها بمثابة تمكينهم من وسائل الأخذ بالثأر والانتقام ممن غلبوهم وأذلوهم

(٦) وتنص المعاهدة على أن كل أهل خيبر يمنحون من العطاء مثل ما يمنح لبطون قريش على أن هذا العطاء بهذا المعنى لم يصرف أيام النبي فضلا عن تحديده بخمسين دينارا

وغير ذلك مما جاء في الصحيفة من الحقوق والامتيازات التي لم تكن الالآل الرسول دون سواهم من الناس وغير معقول أن الرسول يمنح اليهود حقوقا لم يمنحها لعامة المسلمين وأن يسوي بينهم وبين آل بيته

(٧) على أن حوادث عمر بن الخطاب مع يهود خيبر دليل كاف على عدم وجود حقوق من هذا النوع لكل يهود خيبر كما سنوضح ذلك فيما بعد

على أن هذه العقود التي كانت لبعض الأسر لم تغير بوجه عام الحال التي آل

إليها اليهود في البلاد الحجازية لأنهم لم يرجعوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من ثروة طائلة وسلطان كبير بل أخذوا في التدهور شيئا فشيأ ولم تفد كل الظروف الحسنة التي صادفتهم بعد ذلك في إيقاف حركة هذا التدهور

والسبب في ذلك يرجع إلى المراقبة الشديدة التي وضعت على حاصلاتهم الزراعية وثمار أشجارهم التي كانوا يدفعون نصفها لأصحاب الأسهم من المسلمين أما النصف الباقي فلم يكن كافيا لتموين سكان خيبر ولم يكن ذلك كفيلا بأن يوجدهم كحالتهم الأولى...

ثم جاء عمر أمير المؤمنين فأمر بإجلاء أغلب بطون اليهود من خيبر وفدك كما يذكر ذلك ابن هشام فيقول : كان الرسول يبعث عبدالله ابن رواحة إلى خيبر فيقسم ثمارها ويعدل عليهم في الخرص فلما توفى الله نبيه أقرها أبو بكر بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها الرسول حتى توفى ثم أقرها عمر صدرا من إمارته ثم بلغ عمر أن رسول الله قال في وجعه الذي قبضه الله فيه لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت فأرسل إلى اليهود فقال أن الله عز وجل قد أذن في جلائكم فقد بلغني أن رسول الله قال لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتني به أنفذه له ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله منهم....

ومن هنا نستنتج أنه كانت هناك عقود لبعض الأسر اليهودية وأن عمر الذي أمر بإجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر وفدك لم يتعرض ليهود وادي القرى وتيماء بسوء

ويؤخذ من هذا أن أهل وادي القرى وتيماء كان لهم عقد خاص لم يسمح للخليفة بإخراجهم من بلادهم لا كما يعتقد بعض مؤرخي العرب أن تيماء ووادي القرى لم تكن من أرض الحجاز لأن الحدود في تلك الأزمنة لم تكن معينة بدقة إلى

درجة أن يقال إن وادي القرى ليس داخلا في الحدود الحجازية بل بالعكس كان هذا الوادي منطقة تابعة لخيبر الحجازية وكان اليهود الذين يسكنونه يعتبرون من يهود خيبر

ويلفت العالم **Leszynsky** نظر الباحثين إلى بعض أحاديث تتضمن الأمر بإخراج اليهود من بلاد الحجاز كحديث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب... وحديث أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب.... وحديث أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب..... ويشك العالم المذكور في صحة هذه الأحاديث ويقول إنها قيلت بعد وفاة الرسول لأغراض خاصة... ثم أن المسلمين لا يعولون على الأحاديث إلا إذا كانت صحيحة ولهم في قبولها ترتيب خاص فأهمها أحاديث البخاري ثم أحاديث مسلم وفي الدرجة الثالثة باقي الكتب الستة

ولابن إسحاق قصة أخرى عن سبب إخراج عمر بن الخطاب طوائف اليهود من خيبر ويقول : حدثني نافع عن ابن عمر قال خرجت وأنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا قال فعدى علي تحت الليل وأنا نائم على فراشي ففدعت يداي من مرفقي فلما أصبحت استصرخ على صاحباي فأتياني فسألاني من صنع هذا بك فقلت لا أدري قال فأصلحا من يدي ثم قدما بي على عمر هذا عمل يهود ثم قال في الناس خطيبا فقال أيها الناس إن رسول الله كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد عدوا على عبدالله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم مع عدوهم على الأنصاري قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق بي فإني مخرج اليهود فأخرجهم... ولما أخرج عمر اليهود من خيبر ركب في المهاجرين والأنصار وخرج معه جبارين صخر وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم فقسم خيبر على أهل جماعة الأسهم...

أما ابن سعد فلم يات بهذه القصص ويقول : إن رسول الله لما أفاء الله عليه خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهما جمع كل سهم مائة سهم وجعل نصفها لنوائبه وما ينزل به عزل النصف الآخر فقسمه بين المسلمين وسهم النبي فيما قسم بين المسلمين الشق ونطاة وما حيز معهما وكان فيما وقف الوطيحة والكتيبة وسلالم وما

حيز معهن فلما صارت الأموال في يد النبي وأصحابه لم يكن لهم من العمال ما يكفون عمل الأرض فدفعها النبي إلى اليهود يعلمونها على نصف ما يخرج منها فلم يزالوا على ذلك حتى كان عمر بن الخطاب وكثر في يد المسلمين العمال وقووا على عمل الأرض فأجلى عمر اليهود إلى الشام وقسم الأموال بين المسلمين

فعلى ذلك يتضح جليا أن السبب الذي حمل عمر على إجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر يرجع إلى كثرة الأيدي العاملة من الأسرى الذين كثروا عند العرب بعد فتوح بلاد الشام والعراق وفارس وكان هؤلاء الأسرى ذوي خبرة بالأعمال الزراعية كيهود خيبر

ولما كان يهود خيبر يدفعون نصف حاصلات الأرض آثر المسلمون أصحاب الأسهم أن يكون لهم كل هذه الحاصلات ليتمكنوا من تموين أسراهم الكثيرين من جهة وليوجدوا لهؤلاء الأسرى عملا يقومون به من جهة أخرى فأشاروا على أمير المؤمنين بإجلاء البطون التي لم تكن لها عقود خاصة مع الرسول

ويحدثنا البخاري أن عمر أجلى يهود خيبر إلى تيماء وأريحاء

وللواقدي رواية تؤيد صحة ما رواه البخاري يقول فيها : إن عمر أجلى آل الحارث أبي زينب المشهورين إلى أريحاء بأرض فلسطين وكان أحد أبناء الحارث قد التقى في يوم من الأيام بقافلة من الأعراب في جهات أريحاء وهي راجعة من الشام إلى خيبر فنزع ابن الحارث إلى وطنه وحن إليه واشتد به الشوق حتى آلمه الأمر فخاطب الأعراب بقوله أنه كان يود يوم أجلى عمر أسرته من خيبر أن يدخل في الإسلام حتى لا يبعد عن أرض أجداده ولكنه خشي أن يحتقره الخلف ويقولون لقد ضحى الحارث بحياته وأسرته ووطنه لأجل دينه ودين آبائه فجاء ابنه فغدر به....

أما الأسر التي كانت لها معاهدات خاصة مع الرسول فقد أقرها عمر وأقامت على أملاكها وأموالها

وقد بقيت الأغلبية لليهود في وادي القرى إلى القرن الحادي عشر وكذلك

وجدت طوائف منهم في جهات تيماء في القرن الثاني عشر للميلاد

ثم انعدم وجودهم في الحجاز وأطرافها شيئا فشيئا حتى اختلطوا في بقية الأعراب واندمجوا فيهم وكان ذلك بسبب الضغط الشديد الذي حل بهم في عصور الاضطرابات التي حدثت بعد أن تسرب الوهن والاضمحلال إلى الدولة العباسية

* * *

أما في بلاد اليمن فقد بقي فيها اليهود طول العصور القديمة ولم يزل لهم وجود في جهات مختلفة من أطراف الجزيرة العربية إلى أيامنا هذه رغم الرزايا التي لحقت بهم في ظروف شتى، والله يحكم لا معقب لحكمه

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب إلى عبرية وعربية وأفرنجية

مصادر عبرية

תורה נביאים וכתובים (תנך)

תלמוד בבלי

דברי ימי ישראל ד"ר שמחוני

היסתוריה ישראלית ד"ר קלויזנר

דברי ימי ישראל גרץ

בכורי העתים

مصادر عربية

القرآن الكريم

سيرة ابن هشام	طبع مصر
فتوح البلدان للبلاذري	طبع ليدن
تاريخ الخميس للديار بكري	طبع أوربا
صحيح البخاري	طبع ليدن
كتاب المغازي للواقدي	طبع برلين (ترجمة ألمانية)
أمثال الميداني	طبع مصر
تاج العروس	" "
معاهد التنصيص	طبع مصر
نوادر أبي زيد الأنصاري	" بيروت

ديوان السموءل لنفطويه " "

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي " مصر

تاريخ اليعقوبي طبع أوربا

خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي " بولاق

تاريخ الأمم والملوك للطبري " مصر

تاريخ ابن خلدون " "

تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك

طبقات ابن سعد طبع برلين

كنز العمال (مجموعة من الأحادث النبوية) طبع حيدر آباد بالهند

أديان العرب تأليف الشيخ مُحَمَّد نعمان الجارم

بعثة رسول الله بكتبه لابن سعد طبع برلين

كتاب الأغاني للإمام أبي الفرج الأصبهاني طبع مصر

ديوان الحماسة لأبي تمام طبع مصر

مقالة في الإسلام من كتب المبشرين

الروض الأنف شرح لسيرة ابن هشام طبع مصر

معجم البلدان لياقوت

مجلة الجامعة المصرية

مصادر افرنجية

(ألمانية وانجليزية وفرنسية)

R. Dozy: Die Israeliten zu Mekka.

Margolioth: The relation between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam.

Burney: Israel’s settlement in canaan.

Caussin de Perceval l’histiore des Arabes avant l’Islamisme. Wellhausen Y: Skizzen & Vorarbeiten.

Glaser: Sammlung.

Glaser: Skizzen der Geschichte and Geographie Arabiens bis Mohamed.

Wuestenfeld: Geschichte der stadt Medina.

Oilvester deSacy: Memoires sur divers evenement de l’histoire des arabes avant Mahomet.

Lamence: les Juives a la Meque,

Nicholson: A literary history of the Arabs.

Leszynsky: Die Juden zu Medina.

Mitteilungen der vorderasiatischen Gesellschaft.

Jeqish Quarterly Review

Journal Asiatique.

الفهرس